د . صلاح الدين النكدلي

حوار حول التاريخ

ما التاريخ ؟ وكيف نفهمه ؟

© Islamischer Info. Dienst Verlag

العنوان

I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 06.2009

الطبعة الشبكية الأولى

جمادى الآخرة / ١٤٣٠هجري

حزيران / يونيو ٢٠٠٩ميلادي

نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

جميع الحقوق محفوظة للدار الإسلامية للإعلام

Copyright © 2009, I.I.D e.V.
All Rights Reserved

بسم الله الرحمن الرحيم

حوار حول التاريخ

ما التاريخ ؟ وكيف نفهمه ؟

د . صلاح الدين النكدلي

الطبعة الشبكية الأولى

جمادى الآخرة / ١٤٣٠هـ

حزيران / يونيو ٢٠٠٩م

نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

© *Islamischer Info. Dienst Verlag*

العنوان

I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 06.2009

المحتويات

المقدمة	٥
١- المجلس الأول	٧
- من مميزات تاريخنا	٨
- تعريف التاريخ	٩
- هل التاريخ علم ؟	١١
- مؤهلات المؤرخ الحجة	١٤
- عمن يؤخذ التاريخ ؟	١٥
٢- المجلس الثاني	١٦
- وقائع التاريخ وسنن الاجتماع	١٧
- حديثان في السنن	١٨
- قدر الله ودور الإنسان	١٩
- من أصول التعامل مع العلماء	٢١
- التقليد قيد يشل الطاقات	٢١
٣- المجلس الثالث	٢٣
- مكارم الأخلاق صانعة التاريخ	٢٤
- إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق	٢٦
- قصة طريفة في تقويم الأمم	٢٧
٤- المجلس الرابع	٣٢
- نظرة المستشرقين إلى تاريخنا	٣٣
- المؤرخ المسلم .. والمؤرخ غير المسلم	٣٥
- شهادة أمير ويلز في تحيز الغرب	٣٦

٥- المجلس الخامس ٣٩

- حاجتنا إلى إعادة كتابة التاريخ ٤٠
- مراحل التاريخ الإسلامي ٤٢
- كيف نخدم تاريخنا المسطور ؟ ٤٣
- كلمة في مؤرخينا المعاصرين ٤٥

٦- المجلس السادس ٤٧

- مفاسد طغيان المذهب على المنهج ٤٨
- التفسير الإسلامي .. والتفسير الوضعي للتاريخ ٥٢

٧- المجلس الأخير ٥٤

- الوقت رأس مال الإنسان ٥٥
- علاقة السيرة النبوية بالتاريخ ٥٦
- سر اهتمام جيلنا بالسيرة النبوية ٥٧
- كليات التاريخ .. الواقع والأمل ٥٩
- خطوات في الاتجاه الصحيح ٦٢
- الشيخ يسأل الشبان ٦٣

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء : ١] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾

[الأحزاب : ٧٠] .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

❁ ❁ ❁

عزيزي القارئ :

لا يخفى عليك أن موضوع التاريخ قد استحوذ على اهتمام أهل العلم والمعرفة ، وأساطين الحكمة والسياسة عبر العصور .. وأن عقلاء البشر مجمعون على أن التاريخ : مستودع الحكمة ، وموطن العبرة ، ومصدر الاعتزاز والإلهام .

وفي عصرنا برز الاهتمام بالتاريخ بصورة لم يسبق لها مثيل .. فأُقيمت لدراسة نصوصه وتفسير وقائعه مؤسسات ضخمة " كليات التاريخ " تبنت الإنفاق عليها ورعايتها الحكومات في مشارق الأرض ومغاربها .. وظهرت في تفسيره مدارس متعددة .. وعملت على توظيفه لصالح فكرتها مذاهبُ كثيرة .. وعمدت قوى التسلط والجشع إلى جعل التاريخ وسيلة في تطويع الشعوب عن طريق التعرف إلى مواطن قوتها وضعفها!!

وكان بدهياً أن يهتم دعاة التجديد الإسلامي بتاريخ أمتهم العظيمة .. وأن ينبري رجال منهم يُنَظِّرون لعملية التجديد .. وكان عليهم أن يعملوا على إزالة ركام عصور التخلف والسقوط

« العامل الذاتي » .. وأن يتصدوا لإشكالات الغزوة الثقافية الغربية

« العامل الخارجي » التي قذفت بمعايير ورؤى تاريخية ؛ كفيلة بمسخ تاريخ الأمم الأخرى ، وإظهارها في صورة هزيلة مقيتة!!

وكان طبيعياً أن تظهر – بمرور الزمن – مواهب أصيلة تعمل في حقل التاريخ : تأصيلاً وتفسيراً .. وأن تقدم رؤية تاريخية تنبع من هوية الأمة الثقافية « الإسلام » .

وهذا الكتاب مساهمة متواضعة .. مستوحاة من الواقع .. تهدف إلى تقريب مجموعة من المعاني التي ينبغي أن يتسلح بها جيل التجديد من المسلمين .. عند دراسة تاريخهم الإسلامي أو غيره .. وأن ينتفعوا بها في إعادة بناء البيت الإسلامي ، حتى تصبح أمتنا العظيمة قادرة على النهوض بأعباء القيادة والريادة العالمية .. تحقيقاً لقول الله تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

فإن وُفِّقتُ لما أردت .. فمن الله تعالى وله الشكر والحمد ، وإن كان غير ذلك .. فمن نفسي .. وأستغفر الله وأطلب منه العفو والصفح إنه هو التواب البر الرحيم .

المجلس الأول

- من مميزات تاريخنا
- تعريف التاريخ
- هل التاريخ علم ؟
- مؤهلات المؤرخ الحجة
- عمن يؤخذ التاريخ ؟

من مميزات تاريخنا

التقى سعيد بالشيخ محمد وكله أمل في أن يرتشف من علم الرجل جرعات صافية ؛ تساعده في ضبط منهجية دراساته التاريخية ، وتوفر عليه وقتاً كبيراً في البحث عن بعض الحقائق .

وفي حديث عفوي قال سعيد : كم تمنيت يا شيخنا الجليل أن تكون معنا في حفل العيد عصر هذا اليوم ، فقد كان سرورنا عظيماً بفقرات الحفل ، وخاصة تلك اللمسات التاريخية المعبرة ، التي قدمها أبناؤنا في المغترب على خشبة المسرح .

سأل الشيخ محمد : ومن كانت الشخصيات التاريخية التي عرض لها مسرحكم ؟

أجاب سعيد على استحياء : لا يخفى عليكم أن عدداً من المحاولات التمثيلية المسرحية الشعبية ، تبدأ بتمثيل قصة الحجاج بن يوسف مع سعيد بن جبير ، لأنها تعبر عن جبروت الحاكم الظالم وتنكيله بدعاة الإصلاح ، وهذا هو واقع عامة حكامنا اليوم ، ولكون هذه القصة من القصص التي كتبت بأسلوب عصري يعتمد الحوار السهل ..

تنهد الشيخ وبدت الحسرة على محياه وقال : يا بني إن من مميزات تاريخنا أنه جسَّد المعاني في أشخاص . ألا ترى إلى أسلافنا كيف جسدوا الشجاعة في عنترة ، والكرم في حاتم ، والجشع في أشعب ، والظلم في الحجاج ، و .. و .. ؟! .

وبتوسيع النظر يا بُني يظهر بوضوح أن عنصر « المبالغة » قد أثَّرَ في تضخيم هذه المسائل ، ولا تنس أن عامة الناس يُقَوّمون الرجال بنظرة جزئية إلى أعمالهم ، وهذا المسلك لا يسلم صاحبه من وُرُود ظلم عليه! .

وتابع الشيخ قائلاً : ألا ما أروع الإسلامَ العظيمَ وهو يقرر : ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه** ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] . وكم نحن في حاجة إلى التزام هذا الميزان الدقيق العادل ، حين نقوّم الذين مضوا والذين نعاصرهم ؟! .

قال سعيد : أفهم من كلامك أن الحجاج لم يكن ظالماً بقتله سعيد بن جبير وغيره من أهل العلم والخير والاستقامة!! .

قال الشـــيخ : لا تعجل بهذا الفهم يا بني ، فأنا لا أدافع عن الحجاج ، فقد أفضى إلى مـــا قدَّم ، ولكنْ أردت أن أقول : إن الذي ينذر نفسه لتعليم الناس الحق ، وإرشادهم إلى الخير ، عليه أن ينقل إليهم الأخبار الصحيحة ، وبصورة مناسبة ، بحيث يعطي السامعين أو القارئين له معلومـــات واضحة مترابطة متوازنة ، لئلا يقع الخلل في فهم الحقائق أو في معرفة الرجال ، وهذا يا بني ضروري في تعاملنا مع الناس جميعهم ، فالإنسان كما قال الشاعر :

ومن الذي ما ساء قط ؟ ومن له الحسنى فقط ؟

والذي يدرك هذه الحقيقة يعلم حقيقة أخرى هي :

ومَنْ ذا الذي تُرْضى سجاياه كُلُّها ؟! كفى المرء نُبلاً أن تُعَدَّ معايبُهْ

فمن كثرت حسناته وقلت ســيئاته ، سُلك في عداد المحسنين ، ومن اتصف بعكس ذلك كـــان مسيئاً .

تعريف التاريخ

قال سعيد : ولكن التاريخ وصم الحجاج بالإساءة ، وهذا ما ينقله علماؤنـــا في أحـــاديثهم وكتاباتهم!! .

تبسم الشيخ وهز رأسه ثم قال : تقول يا بني : « التاريخ » !..

« علماؤنا »! . إن التعامل مع تاريخنا يا سعيد « فنٌّ » لا يجيده كثير من الناس اليوم ، فقد انقطعـــت صلة عامة المشتغلين بالعلم – فضلاً عن غيرهم – بالتاريخ والمؤرخين! ، ودعنا نبدأ بالمؤرخين ، فهؤلاء فيهم المحسن المتقن لعمله ، وفيهم المسيء ، وفيهم من يوصف بأنه حاطب ليـــل . ومعرفـــة المـــؤرخ والوقوف على أسلوبه في التدوين « ضرورة » يشـــعر بها من لمس أثر قـــصص التـــاريخ في فكـــر الأجيال وأخلاقهم ، بل وفي عقائدهم .

قاطع سعيد الشيخ قائلاً : لقد قرأت في « الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التـــاريخ » للـــسخاوي تعريفه للتاريخ ، فلم أفهم منه ما حمّلته قصص التاريخ من خطورة . إنني ما زلت أذكر قوله :

« والتاريخ في الاصطلاح : التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الولاة والأئمة ، ووفاة ، ورحلة ، وجمع وحفظ وضبط وتوثيق وتخريج ، وما أشبه ذلك مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم ، وحالهم واستقبالهم . ويلحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة ، من ظهور مُلِمَّةٍ ، وتجديد خليفة ووزير ، وغزوة .. وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه ، وانتقال دولة » .

إلى أن يقول : « والحاصل أنه فن يُبحث فيه عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت ، بل عما كان في العالم » .

قال الشيخ : أسعدك الله يا سعيد ، إن كلام السخاوي الذي نقلته الآن يركز على « ظاهر التاريخ » أما « باطن التاريخ » فإنه يتناول ما أشرتُ إليه ، ولله در ابن خلدون فقد عرَّف في « المقدمة » التاريخ فأجاد حين قال :

« أما بعد : فإن فنَّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال ، وتُشد إليه الركائب والرحال .. إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأُوَل .. وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها وخليق » (المقدمة : ٣-٤) .

قال سعيد : أرجو أن تبسط لي معنى التاريخ ، فإني لم أقف على المعاني التي تلقيها في رُوعي قبل الآن! .

قال الشيخ : حبّاً وكرامة يا سعيد ، اعلم يا بني أن التاريخ علم يبحث في الوقائع المختلفة ، فيحدد : إنسانها ، ومكانها ، وزمانها ، وظروفها ، وأسبابها ، وآثارها في مجرى الحياة والأحياء .. وغاية هذا العلم كشف السنن « القوانين » ، « النواميس » التي تضبط حركة الإنسان ، فرداً كان أم جماعة ، ليكون فيها للناس عظة وعبرة .

قال سعيد : لقد زدتني حيرة حين أكدت أن « التاريخ علم » ، فكيف يكون التاريخ علماً يا أستاذي الكريم ؟!

هل التاريخ علم ؟

قال الشيخ : دعنا نتفق على تعريف للعلم ، فإنه مفتاح الجواب على سؤالك ، فهل لك يا سعيد أن تذكر لي تعريفاً للعلم ترتاح إليه ؟

أجاب سعيد : أرى أن العلم عبارة عن المعرفة التي تقوم على أســس ومعلومات لا تتغير ، بحيث يتعامل الإنسان معها بثبات .. كالفيزياء والكيمياء وعلوم الفلك .

قال الشيخ : حسناً يا بُني ، سوف ترى أن علم التاريخ لا يشذ عن هذا الذي ذكرت .. وإليك البيان :

يا بني! إذا تأملنا تاريخ البشر فإننا نجد أن هناك قواعد ثابتة لا تتخلــف بــتغير الزمــان والمكان ، وأضرب لك مثالين :

◈ **الأول** : العبقرية التي يتميز بها أفراد موهوبون ، هذه العبقرية لا يظهر أثرها إلا إذا تــوفرت شروط مناسبة لكل نوع من العبقريات ، فعمر بن الخطاب ﷺ ما كان التاريخ ليــسجل أعمالــه الجليلة ، لولا أن الإسلام قد غير الشروط العقدية والاجتماعية والسياسية .. الخ ، التي كانت قائمة في جزيرة العرب ، فإذا ولد رجل عظيم المواهب في أمة لا تتوفر فيها شروط بروز مواهبه ، فإنه لن يذكر في التاريخ .

وخذ مثلاً آخر : صلاح الدين الأيوبي ، الذي ظهر في ظروف كانت قد تجمعــت في الأمــة شروط تكافئ الهجمة الصليبية ، وتستطيع أن تدحرها ، فجاء صلاح الدين مرتباً للشروط وموجهاً للطاقات ، فكان ما كان مما نذكره بكل فخر واعتزاز .

◈ **الثاني** : إن تعليم الشعوب والعناية بشؤونها الأساسية الحيوية مدعاة إلى الاستقرار والتقــدم : فإذا رأيت أمة في فوضى وتخلف كان عليك أن تبحث عن أســبابه ، فالأمم العزيزة عزت بتوفرها على مجموعة من الشروط الإيجابية ، والأمم الذليلة فقدت مجموعة من الشروط اللازمة لتماسكها وقوتها وعزتها .. فهانت .

إن الحياة البشرية يا بني محكومة بقوانين قدرها العليم الحكيم .. ونحن نجهل بعضاً ونعرف بعضاً .. تماماً كما هي الحال في العلوم المادية ، التي تعرفت أجيالنا على كثير مما كان يجهله الأقدمون منها ، وهذه الحقيقة يشهد لها الواقع ، ألا ترى معي أن الدول القوية في عصرنا تنفق بسخاء على الكليات المتخصصة في دراسة التاريخ ؟ وأن تلك الدول تشكل اللجان المتخصصة في تاريخ الأمم والشعوب ، وتلحقها بالوزارة المناسبة لكي يستفيد منها الساسة في اتخاذ القرار ؟ . أما دراسات المستشرقين فإنها سلاح خطير ، لأن هذه الدراسات تقدم المعلومات الضرورية التي تفيد جهات القرار في التعامل مع الشعوب المختلفة ، وتسهم في الوقت ذاته ، عن طريق دس السم في الدسم ، في إبعاد الشعوب المغلوبة عن مرتكزات قوتها وكرامتها .

قال سعيد : فتح الله عليك بالخير يا شيخنا .. زدني مما علمك الله .

تابع الشيخ بيانه قائلاً : ويؤكد حقيقة أن وقائع التاريخ البشري محكومة بقوانين « سنن » آيات كثيرة في القرآن وأحاديث نبوية وفيرة ..

- فمن آيات القرآن أذكر لك :

١- ورد في سورة آل عمران [١٣٧- ١٣٨] :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ هَـذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

٢- وورد في سورة الحج [٤٥-٤٦] :

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

- أما الأحاديث النبوية فأذكر لك منها نصوصاً مشهورة على الألسنة ، شبَّهت قضايا الاجتماع الإنساني بسنن ، منها :

١- السنن الحيوية : « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ والْحُمَّى** » أخرجه مسلم وغيره .

٢- السنن الفيزيائية : « **مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ . فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا . فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا** » أخرجه البخاري .

٣- السنن الزراعية : « **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ** » أخرجه البخاري ومسلم .

٤- وأختم ما أنقله من كلام النبوة بحديث جامع في هذا الباب : « **لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ** » متفق عليه .

فحياة البشر يا سعيد تتضمن قوانين عليهم أن يكتشفوها ، وأن يستفيدوا منها .

تهلل وجه سعيد فرحاً بما سمع وقال : أحسن الله إليك يا شيخنا ، فلقد علمتني ما كنت أجهل ، فهل بقي في جعبتك مزيد ؟ .

قال الشيخ : نعم يا سعيد .. إن كون التاريخ علماً فإنه يخضع لمنهج البحث العلمي ، وخلاصة هذا المنهج :

١- **جمع مواد البحث .**

٢- **نقد الروايات الواردة سنداً ومتناً .**

٣- **دراسة الثابت منها دراسة تحليلية .**

٤- **استنباط نتائج على شكل مبادئ وضوابط .**

مؤهلات المؤرخ الحجة

قال سعيد : وإذا أراد المرء دراسة التاريخ الإسلامي فماذا عليه أن يصنع ؟

قال الشيخ : هناك فرق بين العالم الذي يدرس التاريخ وينقله إلى الأجيال ويفسره ، وبين الذي يأخذ عن أهل العلم والاجتهاد ، وإني ذاكر لك في مجلسنا هذا أجمع مؤهلات العالم الذي ينذر نفسه لدراسة التاريخ الإسلامي دراسة تعليل واستنباط :

١- **معرفة العقيدة الإسلامية معرفة إيمان وعمل .**

٢- **الإلمام الكافي بالعلوم الإسلامية ، وخاصة علم مصطلح الحديث ليتدرب على الجرح والتعديل .**

٣- **التمرس في معرفة أساليب المؤرخين المسلمين ومذاهبهم في كتابة التاريخ .**

٤- **التمكن من اللغة التي كتب فيها التاريخ .**

٥- **العدالة والضبط .**

٦- **الصدق والأمانة ، والإنصاف والشجاعة في الرأي .**

ثم استطرد الشيخ يقول : وهناك مؤهلات أخرى ينبغي أن يتوفر عليها العالم بالتاريخ ، وقد عبر عنها ابن خلدون في « المقدمة » ببيان غاية في الدقة والجمال فقال :

« يحتاج صاحب هذا الفن إلى :

❍ العلم بقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السِّيَرِ والأخلاق ، والعوائد والنِّحل والمذاهب وسائر الأحوال . والإحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بَوْنِ ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفِق منهما والمختلف .

❍ والقيام على أصول الدول والمِلل ، ومبادئ ظهورها ، وأسباب حدوثها ، ودواعي كونهـــا ، وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث ، واقفاً على أصـــول كـــل خبر .

وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقهـــا وجـــرى علـــى مقتضاها كان صحيحاً ، وإلا زيفه واستغنى عنه » (المقدمة : ٨٢)

عمن يؤخذ التاريخ ؟

قال سعيد : ما أجمل هذا الكلام! ، وما ألطفك في إيصال المعاني الدقيقـــة إلى الأذهـــان والأفهام! . ويبقى الســـؤال المطروح بإلحاح : كيف يتمكن المســـلم الذي لا تتحقق فيه شروط العالم المجتهد المحقق ، من دراسة التاريخ الإسلامي ؟ .

قال الشيخ : الجواب بسيط يا سعيد ، فكل ضرب من ضروب المعرفة ينبغي أن يؤخذ عـــن أصحابه ، وأهل كل علم ليسوا أولئك الذين يشمون رائحته ويحفظون مصطلحاته ، ويهرفون بما لا يعرفون ، فيوهمون العامة أنهم راســـخون في العلم محققون ، ولو عـــرف هـــؤلاء أقـــدارهم ، وتحركوا بما يتناســـب مع حجمهم ، وكانوا جسوراً أمينة بين أهل التحقيق وبين العامة لخدموا العلم خدمة جليلة القدر .

المهم يا بني أن يبذل الباحث عن الحق والصـــواب جهـــداً في البحث عن العلماء المحققـــين ، والمعروفين بسلامة الدين ، تماماً كما يبحث المرء ويســـأل عن الطبيب النطاســـي إذا ألم ببدنـــه مكروه .. فإذا استفرغ جهده خرج من المسؤولية ، وإلا فعليه أن يتحمل نتائج تقصيره في التثبت من معرفته .

قال سعيد : جزاك الله خيراً يا أستاذي الفاضل .. وإلى لقاء قريب .

المجلس الثاني

- وقائع التاريخ وسنن الاجتماع
- حديثان في السنن
- قدر الله ودور الإنسان
- من أصول التعامل مع العلماء
- التقليد قيد يشل الطاقات

نهض خالد من مكانه فجأة وهو يقول : لقد انصرم الهزيع الأول من الليل ونحن نتجاذب أطراف الحديث حول ما ألقاه الشيخ محمد في روعك يا سعيد ، وإني ليسعدني أن نزور الشيخ لنسأله عما يجول في صدورنا حول التاريخ والمؤرخين .. فما الرأي ؟

قال محمود : هذه فكرة حسنة ، وأرجو ألا يكون الشيخ ضيق الصدر ، لا تتسع أخلاقه للحوار ، خاصة إذا خالفناه في آرائه .

فلما كان الغد حضر الثلاثة مجلس الشيخ محمد .. بادر سعيد إلى الكلام مخاطباً الشيخ : لقد حدثت محموداً وخالداً بحوارنا الممتع يوم أمس ، ونحن اليوم راغبون في طرح ما يعتلج في صدورنا بين يديك ، ونأمل أن تصبر علينا إن بدر منا ما لا يسرك .

تبسم الشيخ حتى بدت نواجذه وقال : لا تنس يا سعيد أني من الدعاة إلى « تكامل الأجيال » ، ولقد حدثتك مراراً عن حزني من ظاهرة « تخاصم الأجيال » التي تحكم في زماننا العلاقة بين جيل الآباء وبين جيل الأبناء ، فقولوا معشر الشباب كل ما ترغبون في طرحه بصراحة .. وأذكِّركم أن الصراحة شيء والبذاءة والغلظة شيء آخر ، فعضوا على الصراحة والوضوح بالنواجذ ، وتخيروا التعابير الحسنة .. وما أظنكم يا أبنائي تجهلون أن القلوب مزارع ، فتعالوا نزرع فيها طيب الكلام .

قال محمود : حياك الله يا شيخنا .. فلقد فككت بكلامك العذب عن قلبي أغلال الخوف من الحوار مع من هم أكبر مني سناً ، وشجعتني على أن أبدأك بسؤال : لقد أكدت في كلامك يوم أمس أن وقائع التاريخ تظهر إلى الوجود وفق سنن .. فكيف تفسر الوعود والتأييدات والبشارات التي زخرت بها النصوص ؟

أجاب الشيخ : لقد ذكرتني يا محمود بقصة قصيرة حصلت معي قبل بضعة أعوام .. ففي مجلس علم كنت أطوف حول ما يرشد إليه قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ... ﴾ [الرعد :١١] وقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى**

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٣] ، وذكرت يومئذ أن سنن الاجتماع جزء من السنن الكونية ، وأنها تخضع لقانون العطاء الرباني : ﴿ **كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، فالمسلم وغير المسلم أمام السنن سواء ، بمعنى : إذا عرفها المسلمون وعملوا بمقتضاها باعتبارهم « أمة » أفلحوا ، وكان التأييد الرباني إلى جانبهم في كل ميدان يدخلونه وفق الأصول ، أما إذا جهلت « الأمة الإسلامية » قوانين الحياة والأحياء ، وعلمها غير المسلمين وأخذوا بها .. فإن غير المسلمين يقطفون ثمارها ويتفيؤون ظلالها ، وتمثلت يومها ببيت شعر لمحمد إقبال :

كلُّ شيءٍ فيه قانونٌ سرى كيف في هذي المعاني يُمترى ؟!

وظننت يا أبنائي أن كلامي كان من باب المذاكرة ، لأنني كنت أتحدث إلى لفيف من الشبان المسلمين المثقفين ، ولكن أحدهم فاجأني بسؤال مسبوق باعتراض حاد : إن كلامك هذا خطير جداً ، لأنه يمس العقيدة ، فالله تعالى أخبرنا بجلاء أن الإعزاز والإذلال هبة منه عزَّ وجلَّ .. لا دخل للإنسان في هذا الأمر .. ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ٦٢] ؟!!

حديثان في السنن

قاطع خالد الشيخ قائلاً : وهذا المعنى قد حاك في صدري عندما حدثنا سعيد بما قلته يوم أمس بخصوص « السنن » .. وخاصة تأكيدك على كونها لا تتخلف عن الذي يتعامل معها بإيجابية!!

أطرق الشيخ قليلاً ثم قال بهدوء : يحضرني الآن يا خالد حديثان عظيمان في دلالتهما :

الأول : قوله ﷺ : « **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ** » « سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني » الحديث (رقم ١١) .

الثاني : قوله ﷺ : « **يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا!**

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : فَمِنْ قِلَّةٍ يَومَئِذٍ ؟

قَالَ : لا وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، يُجْعَلُ الْوَهْنُ فِي قُلُوبِكُمُ ،

وَيُنْزَعُ الْرُّعْبُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ ، لِحُبِّكُمُ الْدُّنْيا وَكَرَاهِيَتِكُمُ الْمَوْت » رواه أحمد وأبو داود .

فالحديث الأول واضح الدلالة على أن تعلق القلوب بالدنيا ، يفضي إلى التحايل على الحرام رغبة في جمع الحطام ، وهذا ما تدل عليه كلمة « العينة » ، لأن أصل العينة هو أن يبيع التاجر بضاعة بثمن مؤجل ، ثم يشتريها نفسها ممن اشتراها منه بثمن أقل من ثمن البيع ويدفعه نقداً ، وهذا من التحايل على الربا . ويدل الحديث على أن الدنيا إذا انتقلت من الجيوب إلى القلوب ، وكان ذلك ظاهرة غالبة في الأمة ، فإن الأخلاق الدافعة إلى مجاهدة الباطل والمفسدين تهجر تلك الأمة ، ويكون ذلك من جملة أسباب تصدع بنيانها الداخلي ، عندئذ يطمع فيها عدوها من خارجها فيسومها ألوان الذل .. فالذل يا خالد « نتيجة » أدت إليها « مقدمات » قامت في الأمة ، والحديث يصف العلاج :

« **لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم** » .

أما الحديث الثاني فيصرح بأن الكثرة التي تعلن ولاءها للإسلام ، ولكنها لا تحمل مضموناً إسلامياً يؤهلها للقيادة والريادة ، فإنها تكون غرضاً لكل قوة طامعة .. وتأمل يا بني كيف ربط الحديث بين توزع الغايات وافتقاد التضحيات في أمة ، وبين الضياع والهوان على الناس . « **يُجعل الوهنُ في قلوبكم ، وينزع الرعبُ من قلوب عدوكم ، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت** » .

قدر الله ودور الإنسان

سكت الشيخ هنيهة فاغتنم سعيد الفرصة فقال : ولكن رواد الفكر الإسلامي المعاصرين ينزعون إلى إبراز « دور الإنسان » في حركة الحياة وصناعة التاريخ ، ويهمشون أو ينسون « تأييد الله عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين » ، وهذا قد يدفع إلى خلل نفسي ، يشبه ما حدث لعامة المسلمين يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم .. فلم تغن عنهم شيئاً!! .

قال الشيخ : ليس بدعاً يا بني أن ينتصر الرواد الإسلاميون المعاصرون لفكرة « دور الإنسان في صناعة التاريخ البشري » فحال المسلمين في عصرنا يؤرق كل مخلص ، ويدعوه إلى تلمس أسباب الهوان والذلة .. ويدفعه دفعاً إلى معرفة عوامل القوة والعزة والمنعة .. لينذر قومه لعلهم يحذرون .. فإبراز أهل العلم لدور الإنسان في تغيير واقع المسلمين اليوم .. إنما هو تجديد للمعاني الإسلامية .. التي أصبحت مجهولة لدى معظم أفراد الأمة .. أو تأثرت بفكر فاسد حرفها عن مسارها الصحيح .. فلم تؤت في النفس وفي الحياة ثمارها .. وإليكم يا أبنائي مثلاً يقرب المقصود : ألا يؤمن المسلمون بأن الله تعالى هو " الغفور الرحيم " وأنه عزَّ وجلَّ هو « الرزاق » ؟ .

قالوا : بلى .

قال الشيخ : فكيف يتعامل معظم المسلمين اليوم مع كل من صفتي « الرحيم » و " الرزاق " ؟! .

قال خالد : يتعاملون معهما كما قال القائل :

هو رزاقٌ كما هو غافرُ فَلِمْ لا تُصَدِّقْ فيهما بالسوية ؟!

قال الشيخ : أكرمك الله يا خالد .. فإذا نهض في المسلمين من يُبيِّن أن رحمة الله تعالى إنما تطلب وترجى بطاعته .. وأن المعاصي تجعل الران على القلوب وتبعدها عن علام الغيوب .. فهل يكون من يفعل ذلك مجانباً للصواب ؟!

قالوا : بل يكون في قمة الصواب .

قال الشيخ : وهذا ما حدث في باب « السنن الاجتماعية » ، فالله تعالى يا أبنائي هو : « المعز » .. هذه حقيقة يؤمن بها كل مسلم .. ولكن عامة المسلمين لم يسلكوا طريق العزة .. أي فقدوا التوفيق – كما يقول محمد قطب – بين فاعلية « قدر الله » وفاعلية الإنسان .. فهانوا . ولا يريد معظمهم أن يدركوا بقلوبهم ومشاعرهم هذه الحقيقة .. وينبغي أن يدركوها لكي يشعروا بمسؤوليتهم عن تغيير الواقع الآسن ، إذا أرادوا العزة والعودة إلى قيادة سفينة البشرية نحو الهداية الحقة .

من أصول التعامل مع العلماء

تدخل محمود سائلاً : وهل لشيخنا أن يضرب لنا مثلاً من المعاصرين الذين رأوا جوانب قضية دور الإنسان في الحياة ، وكانت رؤيتهم شرعية لم تغفل جانب التأييد الإلهي ؟

أجاب الشـــيخ : حباً وكرامة يا بني .. ولكني قبل الجواب المباشر أود أن أبـــين قـــضيتين أساسيتين تتعلقان بأصول تعاملنا مع الرواد المعاصرين .. وهما من أصول التعامل مع التاريخ أيضاً :

القضية الأولى : عندما نقرأ بحثاً أو كتاباً لمفكر أو عالم .. فإنه ليس من العدل أن نعتبر كلامه في موضوع ما قد اســـتوفى جميع ما يعلمه أو يؤمن به .. ثم بناء على ما قرأنـــاه أو ســـــمعناه نـــصدر أحكاماً عامة عليه .. فقد يكتفي العالم بإظهار الجانب المتعلق بموضوع البحث فقط .. ويتأكد هـــذا المعنى إذا كان للكاتب كتب وبحوث أخرى .. فينبغي عندئذ أن نرجع إلى ما صدر عنه في الموضـــوع نفســـه ، حتى يتسنى لنا الوقوف على ما يساعدنا في التعرف إلى جوانب ما يـــراه في مـــسألة مـــن المسائل .

القضية الثانية : ترجع إلى الميزان الذي نستخدمه في تقدير آراء المفكرين ونُقَوّم به عقائـــدهم .. فقد يكون الميزان الذي نســـتخدمه في حاجة إلى ضبط المعايير ، نتيجة تأثير آراء البشر فيه .. وهذا ما نلمسه في الذين لا يتعاملون مع القرآن والسنة مباشرة ، ومن خلال ضوابط الشرع نفسه .. هؤلاء يا أبنائي يمثلون مشكلة كبرى .. لأنهم يهجمون على كثير من أهل الفكر المعاصرين .. وربما السابقين .. متهمين إياهم بالجهل أو الضلال أو العبث بقيم الإســـلام العظيم .. وتكون النتيجة بلبلة في الأفكـــار وقطعاً لأواصر التعاون على البـــر والتقوى .. ولو وسَّـــع هؤلاء دائرة نظرهم لوجدوا أن الـــصواب .. المطلق أو النســـبي .. ربما كان في جانب الذين يعترضون عليهم ويهاجمونهم بضراوة .

التقليد قيد يشل الطاقات

تهلل وجه محمود ســـروراً بما سمع .. واندفع مقاطعاً الشيخ قائلاً : جزاك الله خيراً علـــى حسن بيانك أيها الشيخ .. فهذه المعاني نحن بأمس الحاجة إليها .. لأن القراءة الجزئية الناقصة للتاريخ

الماضي وللواقع القائم « ظاهرة » بارزة للعيان في حياة كثير من الواعين من رجالاتنا .. فضلاً عن غيرهم!! ، ولا ريب في أننا مطالبون بإحياء فكرة « الاجتهاد » ، أي : التعامل الحي المباشر مع القرآن والسنة ، حتى نتمكن من رؤية قضايا الأمس واليوم في حجمها الطبيعي ، فالتقليد – كما قال ابن الجوزي في " تلبيس إبليس " – فيه « إبطال منفعة العقل ، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة » . وإني لأشعر بحزن عميق حين أرى من يتخذ من رموز أجيال مضت .. أو من رواد الحركة الإسلامية المعاصرين .. سقفاً للفهم والإدراك والاجتهاد والإبداع .. فيرون الدنيا المتغيرة بعيون من سلف .. أو سبق منه اجتهاد!! .

نظر الشيخ إلى الساعة وقال : حسناً يا أبنائي .. أرى أن نتوقف اليوم عن متابعة الحديث .. لأني على موعد حان وقته .. وموعدنا غداً وسنتحدث إن شاء الله عن الرواد المعاصرين .

المجلس الثالث

- مكارم الأخلاق صانعة التاريخ
- إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق
- قصة طريفة في تقويم الأمم

مكارم الأخلاق صانعة التاريخ

استأذن الشبان الثلاثة في الدخول على الشيخ محمد في الموعد المتفق عليه .. فلما اجتمعوا إليه قال لهم :

نحن اليوم على موعد مع مثل نضربه من روادنا المعاصرين ، الذين بذلوا جهوداً مضنية في سبيل تحريك طاقة المسلمين .. التي توقفت عن العمل والحركة منذ أجيال!! . فقد أبرز الدعاة الإسلاميون أن « دور الإنسان في تغيير الواقع وصناعة التاريخ الناصع » إنما هو « فريضة من الله عزَّ وجلَّ » ، ودللوا من النصوص على أن نصر الله تعالى وتأييده .. لا يتنزلان إلا على من توفرت فيهم شروط الحركة الحية الإيجابية .. وأضرب مثلاً أبا الأعلى المودودي ، ولنأخذ كتابه « **الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية** » ، وهو كتاب صغير الحجم نفيس في معانيه . في هذا الكتاب قسم المودودي الأخلاق إلى قسمين :

١- **الأخلاق الإنسانية الأساسية** : ولقد بين المودودي أن هذا القسم من الأخلاق « مشاع » بين جميع الناس .. مؤمنهم وكافرهم .. وأن الأمم التي تقيم هذه الأخلاق بجدارة تحصد خيرها . ولو تأملتم يا أبنائي طائفة من المعاني التي ذكرها المودودي لعلمتم أنها أخلاق بانية للأمم صانعة للمجد .. انظروا مثلاً إلى :

قوة الإرادة - الصبر - الولوع بالغايات - الاستعداد للتضحيات - الشعور بالواجب - الإحساس بالمسؤولية - القدرة على العمل المنظم - القدرة على تقدير المواقف - الهمة والنشاط - الأناة - الإقدام - الثبات - رباطة الجأش .. الخ

ألا تصنع مثل هذه الأخلاق للأمم أمجادها ؟ .

توقف الشيخ عن الكلام ، وأطرق ملياً ، ثم قال : ما رأيكم أن نستريح قليلاً مع شعر الحكمة في باب الأخلاق ؟

قال سعيد : هات ما عندك يا شيخنا .. فكلامك جميل نثراً وشعراً .

قال الشيخ : ألا ما أصدق الشاعر وليد الأعظمي حين وضع يده على أسباب غروب شمس المسلمين .. بعد أن سطعت في سماء الدنيا قروناً! ، إنه يقول :

يا ربِّ لطفك بالإسلام قد أخذتْ ... من أهله عروةُ الإخلاص تنفصمُ
وأصبحت أُممُ الإسلام قاطبةً ... بين الأنام بسيما الذل تتسمُ
تستبدل الكفرَ بالإيمان واأسفا ... وتشرب السمّ ظناً أنه دسمُ
أودى بها الطيشُ واللذاتُ فانمحقت ... منها الشجاعةُ والإقدامُ والكرمُ
وغادرتها دواعي المجد أجمعُها ... وساورتها شكوكٌ دونها الظُّلمُ
والمجدُ وعرٌ .. فقل لي : كيف يسلكه ... من لم يكن عنده ساق ولا قدمُ ؟!
وكيف ينهض للعليا أخو ضَعةٍ ؟! ... وكيف يدعو إلى الإصلاح مُتَّهمُ ؟!
ما قام فينا أخو رشدٍ لينصحنا ... إلا وهاجت ظنونُ السوء تتهمُ
وإن دعانا إلى خير ومكرمة ... قلنا : له غايةٌ أخرى هي الغُنُمُ
يا ضَيْعَةَ الحقِ والإنصاف في بلدٍ ... فيه الرذيلة عينٌ والفسادُ فمُ
عشنا على هامش الدنيا بغير هدى ... يا للزريةِ لا عُرْبٌ ولا عجمُ
خلائقٌ كظلام الليل من يرها ... يقل : بأمثال هذي تمسخ الأمم

قال سعيد : ما أروع هذا البيان .. زدنا أكرمك الله .

قال الشيخ : أُفضِّل أن نعود إلى بيان ما ذكره المودودي بخصوص القسم الثاني من الأخلاق ، وهو :

٢- **الأخلاق الإسلامية** : فتحت هذا العنوان وضَّح المودودي أن الإسلام زوَّد الإنسان بالعقيدة .. التي ترشده إلى استخدام الأخلاق الإنسانية الأساسية - التي سبقت الإشارة إليها - في الاتجاه الصحيح .. وأضاف الإسلام أخلاقاً أخرى ضرورية لبناء الحياة ، وتجتمع هذه الأخلاق في « تقوى القلوب » .. ومنها : الإخلاص ، والحب في الله والبغض في الله ، ومجاهدة النفس .. الخ .

ثم بعد ذلك عقد المودودي عنواناً مهماً هو : « **الفرق بين الأخلاق الأساسية والأخـــلاق الإســـلامية** » قال فيه : « والذي أرشدتني إليه دراستي للقرآن الكريم والتاريخ ، والإمعان فيهما ، أن لله سُنة مطردة في باب التوازن بين القوتين المادية والخُلقية ؛ وهي أنه إذا كانت القوة الخُلقيـــة بتمامها مرتكزة في الأخلاق الإنســـانية الأساسية . فهناك للوسائل المادية أهمية عظيمة ، حتى إنه من الممكن – عندئذ – أن يستتب الأمر في الأرض لفئة لها النصيب الأوفر من الوســـائل المادية ، ولو لم يكن عندها إلا قليل من القوة الخُلقية ، على حين أن الفئات الأخرى التي قـــد تفوقهـــا في القوة الخُلقية تكون مغلوبة على أمرها لقلة الوسائل المادية فحسب .

أما إذا كانت القوة الخُلقية مدججة بأســـلحة من الأخلاق الأساسية والإسلامية معاً ، فهناك لا بد أن تتغلب الأخلاق – على قلة الوسائل المادية عندها – على سائر القوى التي لم تقم و لم تبرز إلى الميدان إلا مستندة إلى الأخلاق الأساسية والأسباب المادية فقط .. بل الذي تعلمنا تجارب العهـــد النبوي أنه إذا كانت الأخلاق الإسلامية على ما كانت عليه أخلاق النبي ﷺ وأصحابه الكرام .. فإن خمس درجات من الوسائل المادية تقوم مقام مائة درجة منها . وإلى هذه الحقيقة قد أشار القـــرآن الكريم بقوله : ﴿ ... **إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِـــائَتَيْنِ** ... ﴾ [الأنفـــال : ٦٥] ص : (٢٣-٣٣) .

إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق

قال خالد : هذا كلام حسن لم أسمع بمثله من قبل!

وأردف سعيد : أشعر أننا قطعنا كلام الشيخ! ، وأرجو أن يتابع شيخنا حديثه الشيق .

تبسم الشيخ وقال : من حوارنا تعلمون يا أبنائي أن الأخلاق – بمعناها الواسع الشامل – هي التي تصنع تاريخ البشر ، وإني كلما ذكرت حديث رســـول الله ﷺ الصحيح : « **إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّـــمَ صَالِحَ الأَخْلاَق** » لينطبع في مرآة قلبي ما ذكره المودودي من أن هناك أخلاقاً فاضلة مركـــوزة في فطرة الإنسان ، وأن الإسلام جاء ليحركها في الاتجاه الصحيح .. وليزودها – حتى تؤتي ثمرتها يانعـــة – بالضوابط اللازمة .

صدقوني يا أبنائي أن الذين صنعوا لنا تاريخنا العظيم في أول عهد أمتنا كانوا على جانب عظيم من الأخلاق الإنسانية الأساسية .. فلما جاءهم الرسول ﷺ بالإسلام من عند الله تعالى ، وصبغوا حياتهم به ، وضعوا قوتهم الخلقية في المجال الذي أرشدهم إليه الإسلام العظيم .. فأحسنوا غاية الإحسان إلى أنفسهم وإلى الناس ..

وتأملوا معي هذا الحوار الجميل المعبر عما نحن بصدد الحديث عنه ، وتعمقوا في معانيه . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

« **قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟**

قَالَ : أَتْقَاهُمْ .

فَقَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ .

قَالَ : فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ .

قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ .

قَالَ : فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُون ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا » متفق عليه .

قصة طريفة في تقويم الأمم

لم يخف محمود إعجابه وسروره بما سمع من الشيخ من الإرشادات الدقيقة والمعاني اللطيفة .. ورغب في معرفة رأي الشيخ محمد فيما كتبه سيد قطب بعنوان : " **في التاريخ .. فكرة ومنهاج** " . ولكن خالداً ألح في طرح إشكالية أثارها كلام الشيخ وهو يتحدث عن الرعيل الأول حين قال : « إن الذين صنعوا لنا تاريخنا العظيم في أول عهد أمتنا ، كانوا يتوفرون على نسبة عالية من الأخلاق الإنسانية الأساسية » . **قال خالد** :

ألا يرى الشيخ أن كلامه عن وجود نسبة عالية من الأخلاق الإنسانية الأساسية في أمة العرب عند البعثة النبوية ، يتعارض بقوة مع قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾ [الجمعة : ٢] ؟!

قال الشيخ : وأين موضع التعارض يا خالد ؟! .

أجاب خالد : إنه في وصف الجاهليين ﴿ **وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾ وفي تأكيدك على أنهم كانوا يتمتعون بصفات أخلاقية عالية سميتها « الأخلاق الإنسانية الأساسية » .

قال الشيخ : أرى مفيداً أن أسرد عليكم هذه القصة فاسمعوها جيداً .. قبل بضع سنين كنت مراقباً لأعمال المكتبة في مؤسسة إسلامية في بلد أوروبي .. وخاصة قسم المبيعات .. وذات يوم اعترض رجل غيور على بيع كتاب « **أباطيل يجب أن تُمحى من التاريخ** » لإبراهيم علي شعوط . وحين سألت عن سبب الاعتراض ؟ كان الجواب : لأن الكتاب يتضمن ما يتناقض مع الإسلام!! . وكان لا بد من ضرب موعد لمناقشة الموضوع ، وجاء الرجل الطيب يحمل الكتاب ، وحين فتحه رأيت أنه وضع خطوطاً حمراء في المواضع التي رأى أن فيها أخطاء لا تغتفر ، ولا يجوز التسامح حيالها .

وكان علي أن أبين سياسة المؤسسة في التعامل مع الكتب والمؤلفين ، فبدأت الكلام قائلاً : نحن نرى أن للمكتبة دوراً تثقيفياً عاماً ، وهذا هو تفسير التنوع الكبير الذي تراه في الكتب المعروضة للبيع ، ولقد رفضنا أن تكون النظرة المذهبية والفكرية والتنظيمية سبباً في منع كتاب من القدوم إلينا وتوزيعه عن طريقنا . ونحن نمتنع فقط عن الترويج للكتب التي تدعو إلى ضلالة ، أو الكتب التي تثير فتنة القيل والقال . وما عدا ذلك فنرى أنه مفيد ، وإن تعارضت الآراء المطروحة وتناقضت ، لأن في ذلك إثراء للفكر . وهذا التنوع في القراءة يسهم في التخفيف من غلواء القراءة الأحادية الاتجاه .

قال : حسناً ، وما رأيك في هذا الكتاب ؟! .

قلت : إن كونه جهداً بشرياً يعني ببساطة أنه يحتمل أن يكون فيه صواب وخطأ ، والخطأ – كما تعلم – قسمان : « خطأ مطلق » وهذا لا يصح تسويغه ولا الترويج له ، و « خطأ نسبي » وهذا النوع له أسبابه ؛ فقد يأتي من قلة المعلومات في قضية من القضايا ، وقد يأتي من اختلاف الناس في القدرة على الربط بين أجزاء المعلومات والاستنباط .. وقد .. وقد ... وهذا النوع من الخطأ لا يخلو منه جيل ، ولذا نوصي أن يكون التعامل معه بروح مرنة على أساس : « **مذهبنا صحيح يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب** » .

قال : حسناً ، وهذا الكتاب – في تقديري – يدخل في قائمة الكتب التي تقلب الحقائق وتكذب النصوص!!

قلت : هات براهينك .

قال : إن من عظمة الإسلام أنه ظهر في أمة كانت تعيش في « ضلال مبين » ، فأخرجهم – بإذن الله تعالى – من الظلمات إلى النور ، وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس . وهذا الكتاب يقول : إن العرب لم يكونوا هملاً أو مادة ليس لها قيمة ، بل كانوا شيئاً مذكوراً !! .

سألته : وهل ذكر المؤلف أدلة على ذلك ؟

أجاب : نعم ، إنه ذكر أموراً استنتج منها أن أمة العرب ، كانت على مواصفات نفسية وخلقية وحضارية جيدة .. واستشهد أنهم كانوا يتعاطون التجارة ، وهذه دفعتهم إلى الاحتكاك بمواطن ثقافية وحضارية في الشام واليمن وغيرهما .. وعن طريق الاحتكاك أخذوا وأعطوا .. وأشار إلى النشاط الزراعي الذي كان معروفاً في عدد من الأماكن في الجزيرة العربية مستدلاً أنه شاهد حضاري .. وذكر أموراً أخرى لعل أهمها ما ذكره تحت عنوان : « **دلالة اللغة على عقلية المتحدثين بها** » حيث يقرر أن المستوى اللغوي الرفيع في أمة دليل حضاري بمعايير الحضارة .. والدليل على ذلك " القرآن " نفسه ، فالعرب الذين كانوا مؤهلين لفقه مراميه بيسر لا شك أنهم ليسوا من سقط المتاع!! .

قلت له : وكيف جمع الكاتب بين استنتاجاته وبين قول الله تعالى في العرب إبان البعثة النبوية ﴿ **وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ﴾ ؟! .

قال : إنه يرى أن هذا الوصف « الضلال المبين » ينصرف إلى « العقيدة » و « العادات » و « التشريعات الجائرة » ونحو ذلك .

قلت له : إذاً فالكاتب يؤمن بما جاء في القرآن بخصوص أهل الجاهلية ، ولكنه ينكر أن تكون الأمة التي بعث الله تعالى فيها رسوله ﷺ أمة أقرب إلى البهائم منها إلى البشر ، وأرى أن ما ذكره الكاتب صحيح ولا يتعارض مع ما وصف القرآن به أهل الجاهلية من الضلال المبين .

قال : كيف لا يتعارض ؟! .

أجبته : رويدك .. نحن نقطن الآن في أوروبا ، فهل ترى عند الشعوب الأوروبية مواصفات إيجابية في الجانب العقلي والصناعي والإداري والزراعي .. إلى آخر ما هنالك .. مما يدل على الحضارة ؟ .

قال : نعم .

سألته : ألا تعتقد إلى جانب ذلك أنهم في ضلال عقيدي ، وأنهم يعانون من فساد اجتماعي وانحرافات أخلاقية ؟ .

قال : بلى .

قلت : فهل يتناقض داخل نفسك ما تراه في أوروبا من إيجابيات وما تراه – بموازين الإسلام – في حياتهم ضلالاً مبيناً ؟ .

قال : لا .

قلت : إن العرب عند بعثة النبي ﷺ كانوا مؤهلين للقيام بدور حضاري قيادي .. وأمتنا اليوم في حاجة إلى بعث هذه المعاني التي غادرتها إذا أرادت غداً مشرقاً .. وثق تماماً لو أن أوروبا تحولت إلى الإسلام لصنعت للبشرية أعمالاً جليلة .. لأنها شعوب قادرة على التفكير العميق ، والاجتهاد المدرك ، والعمل المنتج ، ولكنها في حاجة إلى هداية الإسلام .

ثم توجه الشيخ بالكلام إلى الشبان الثلاثة قائلاً :

وهذه يا أبنائي مســـألة دقيقة ، لا يعيها إلا صاحب فكر حضاري ، يتمتع بقدرة فائقة على النظر والتحليل والاستنباط ، ولا يقف عند نص واحد أو حادثة واحدة فيعمم الدلالات على جميع شعب الحياة .

المجلس الرابع

- نظرة المستشرقين إلى تاريخنا !
- المؤرخ المسلم والمؤرخ غير المسلم
- شهادة أمير ويلز في تحيز الغرب

نظرة المستشرقين إلى تاريخنا !

استهل الشيخ محمد اللقاء بقوله : كانت رغبة محمود – في لقائنا السابق – متجهة إلى الكلام عن آراء سيد قطب ، التي سطرها في رسالته القيمة « **في التاريخ .. فكرة ومنهاج** » ، وأرجو أن لا ندخل في موضوع آخر قبل أن نستمع إلى محمود ، فقد طال انتظاره .

قال محمود : تتفق نظرة سيد إلى التاريخ مع ما تحدث به الشيخ نقلاً عن ابن خلدون ، ويبرز سيد بوضوح « الضوابط » التي ينبغي أن يتسلح بها مفسر التاريخ ، وبما أن مدارس الاستشراق تولي تاريخنا اهتماماً كبيراً ، ونظراً لما تسنَّمته دراساتهم من مكانة سامقة لدى كثير من مثقفينا المعاصرين ، فإن سيداً قد اهتم بإظهار جوانب النقص في تقويم المستشرقين لتاريخنا ، وفي تفسيرهم لحوادثه المسطورة في الكتب .

قال الشيخ : هذا ممتع جداً ، فابسط أمامنا ما قاله سيد يا محمود! .

قال محمود : ينطلق سيد من قاعدة رائعة جامعة فيقول : « التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث .. ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها ، ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها : معنوية ومادية ، وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقوعها في مداركه ، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد » (ص ٣٧) . ثم يبين سيد أن الذي لا يوفر هذه الشروط ، فإن استجابته تكون ناقصة ، ويأتي تحليله مشوباً بالجهل المقصود أو غير المقصود ، وبناء على ذلك يقرر :

«هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية ، ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية – بصفة عامة – لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة ، والحياة الإسلامية على وجه الخصوص .. عنصر الروحية الغيبية – وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية ، والطريقة التجريبية على وجه أخص – وكلما كانت

هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام ، كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة .

وقد ذكرت عنصر الروحية الغيبية على وجه التخصيص ، لأنه أظهر ما يبدو فيه النقص في الطبيعة الغربية ، وفيه تكمن معظم أوجه الاختلاف بين الطبيعتين ، وهي شتى وكثيرة » (ص ٣٨-٣٩) .

سأل خالد : وهل اكتفى سيد بهذه الإشارة إلى أوجه الاختلاف في فهم التاريخ بين أهل الغرب وبين المسلمين ؟ .

أجاب محمود : إن عنصر « غياب الإيمان بالغيب والنبوة » من أهم وأجمع عوامل إشكالية فهم التاريخ الإسلامي ، ومع ذلك فإن سيد قطب أضاف سبباً آخر يضعف من قيمة دراسات المستشرقين التاريخية ، إنه « اختلاف زاوية الرؤية » وفي ذلك يقول :

« وثمة سبب للشك في قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية . ذلك أنه لا يخفى أن كل مرئي يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية ، وكذلك الشأن في الأحداث والوقائع . والأوروبي بطبيعته ميال إلى اعتبار أوروبا هي محور العالم ، فهي نقطة الرصد في نظره ، من هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث ، ومن هنا تتخذ في نظره أشكالاً معينة . . » (ص ٤٠) .

قال سعيد : إن هناك عاملاً هاماً ، غير عامل « الإيمان بالغيب » وعامل « اختلاف زاوية الرؤية » ، له أثره العميق في عملية دراسة التاريخ وتفسيره .. إنه الموقف العقدي والاحتكاك التاريخي المتجدد بين المسلمين وبين الغرب ، فهل أغفل سيد ذكر هذا العامل الهام الخطير ؟ .

قال محمود : لا يا سعيد ، إنه لم ينسه ، واستمع إلى ما يقرره بهذا الصدد ، فبعد أن ذكر الأسباب الموضوعية التي سلف ذكرها ، قال :

« ذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة ، وانتفاء الأسباب التي تؤثر على هذه النزاهة ، فإذا نحن وضعنا في الحساب ما لا بد من وضعه ، وما لا يمكن جدياً إغفاله ، من أسباب ملحة قاهرة عميقة طويلة الأجل ، متجددة البواعث ، تؤثر في نظر الأوروبي للإسلام ، وللحياة

الإسلامية ، وللعالم الإسلامي : من اختلاف في العقيدة ، إلى كراهية لهذا الدين وأهله ، إلى ذكريات تاريخية مريرة في الأندلس وفي بيت المقدس وفي الآستانة ، وفي سواها ، إلى صراع سياسي واقتصادي واستعماري ، إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية .. إلى آخر تلك البواعث القديمة المتجددة أبداً » (ص ٤١) .

المؤرخ المسلم والمؤرخ غير المسلم

تدخل الشيخ محمد قائلاً : دعنا يا محمود نقف عند الشروط التي نقلتها عن سيد في تقويمه لدراسات المستشرقين ، والتي يمكن تبويبها على النحو الآتي :

١- **العقيدة** .

٢- **البعد الغيبي** .

٣- **زاوية الرؤية** .

٤- **الذاكرة التاريخية** .

٥- **المصالح المعاصرة** .

وهذه العوامل هي أبرز ما تفرق بين « المؤرخ المسلم » و « المؤرخ غير المسلم » . ولعل عامل « اختلاف العقيدة » يجمع تحته جميع - أو معظم - العوامل الأخرى التفصيلية ، لأن تباين العقيدة بين أمتين له انعكاسات تشمل دوائر الإنسان جميعها .

سأل خالد الشيخ : ولم هذا التفريق بين المؤرخ المسلم وبين المؤرخ غير المسلم ؟ .

أجاب الشيخ : لأننا نستطيع مطالبة المؤرخ المسلم بالتزام الحق والعدل والإنصاف ديانةً ، أما غير المسلم فنجادله بالقواعد والضوابط العادلة المطلوبة عند دراسة تاريخ الإنسان ، وهذا الحوار هو جزء من تبليغ « العقيدة » التي نؤمن بها .

قال سعيد : وهل بمقدور مؤرخ غير مسلم أن يحقق في تسجيله للتاريخ ، أو في تفسيره لحوادثه ، الشروط التي نراها صواباً ونتحدث عنها ؟!

قال الشيخ : لا يا بني هذا مستحيل ، وليست المشكلة في أن المؤرخين غير المسلمين لا يتفقون في النتائج مع المؤرخين المسلمين ، وإنما في كونهم يعطون طرائق تفكيرهم ودراساتهم وتفسيراتهم صفة « العلم المطلق » وتظهر خطورة بحوثهم في ثلاث ساحات بصورة أساسية :

الأولى : ساحة أصحاب القرار السياسي من أبناء الغرب؛ فعن طريق الدراسات الاستشراقية يُكَوّنُ هؤلاء فكرتهم عن الإسلام والمسلمين ، والعالم الإسلامي ، ولا شك في أن ساسة الغرب متأثرون بخلفيتهم الثقافية المتعلقة بالإسلام والمسلمين .

الثانية : ساحة القراء العاديين من أبناء الغرب ، ولا ريب في أن كتابات المستشرقين تعد رافداً من أقوى روافد تشويه صورة الإسلام والمسلمين في نظر كثير من عامة الغربيين ، ولقد أكد إدوارد سعيد في كتابه القيم « الاستشراق » أن الاستشراق معناه صناعة صورة الشرق لتحقيق أهداف يراها أصحاب القرار في الغرب ضرورية لحياتهم !! .

الثالثة : ساحة أبناء المسلمين ، الذين تتلمذوا على أيدي المؤرخين المستشرقين ، ولا يخفى أن التلميذ مولع بتقليد أساتذته ، ومن هنا يأتي الخطر . ولكن يبدو أن هذا التقليد آخذ بالتقلص ، بسبب انتشار الجامعات في بلاد المسلمين ، وظهور الدراسات الذاتية ، التي نرجو لها مزيداً من الرصانة والعمق ، حتى تصير بديلاً يستغنى به عن مراجع المستشرقين .

شهادة أمير ويلز في تحيز الغرب

اندفع سعيد بقوة قائلاً : ويشهد لكلام شيخنا ما قاله ولي العهد البريطاني في خطاب ألقاه في ١٩٩٣/١٠/٢٧م ، أثناء زيارته إلى مركز الدراسات الإسلامية باكسفورد ، وكان عنوان خطابه « الإسلام والغرب » .

قال الشيخ : هيه يا سعيد! وماذا قال تشارلز أمير ويلز ؟

قال سعيد : تناول الأمير تشارلز في خطابه عدداً من القضايا ذات العلاقة بين الإسلام والغرب ، وقد برز من كلامه عن الإسلام وتاريخه جانب النقص في المعلومات ، وظهر ضعف المرجعية التي يستقون منها ، ولن أنقل إليكم ما قال بهذا الخصوص عن الغربيين ، وسأقتصر على الجوانب التاريخية ، كما يراها الغربي المثقف ، من كلام تشارلز .

يقول أمير ويلز : « الحقيقة المحزنة هي : على الرغم من التقدم في مجال التكنولوجيا ووسائل الاتصال ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، وعلى الرغم من سفر الناس على نطاق واسع ، واختلاط الأجناس ، وإماطة اللثام- أو هكذا نعتقد - عن الكثير من ألغاز هذا العالم ، فإن سوء الفهم بين الإسلام والغرب ما يزال مستمراً ، بل ربما أخذ في الازدياد » .

ثم يضيف تشارلز حقيقة أخرى فيقول : « إن سوء الفهم هذا ، بالنسبة للغرب ، لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل ، فهناك بليون مسلم في شتى أرجاء العالم ، ويعيش الملايين منهم في بلدان الكومنولث ، وهناك عشرة ملايين مسلم أو أكثر في الغرب ، من بينهم حوالي مليون في بريطانيا ، إن جاليتنا تنمو وتزدهر منذ عقود ؛ فهناك حوالي ٥٠٠ مسجد في بريطانيا ، والاهتمام الشعبي بالثقافة الإسلامية يتنامى بسرعة » .

تابع سعيد كلامه قائلاً : ويرى الأمير تشارلز أن تاريخ العالمين ؛ الإسلامي والغربي ، قد « تميز بالصراع ، وكثيراً ما اتسمت فترة الأربعة عشر قرناً أيضاً بالعداء المتبادل ، وقد أدى ذلك إلى نشوء تقليد دائم من الخوف والشك ، لأن عالمينا غالباً ما ينظران إلى ذلك الماضي بمنظورين متعارضين » . ويضرب أمثلة للتدليل على رأيه ، وأكتفي بذكر واحد منها ، يقول تشارلز : « فبالنسبة لتلاميذ المدارس الغربية ، تعتبر الحروب الصليبية التي استمرت مئتي عام ، سلسلة من الأعمال البطولية والمجيدة ، حاول خلالها الملوك والفرسان والأمراء والأطفال الأوروبيون ، تخليص القدس من أيدي الكفار المسلمين الأشرار . أما المسلمون فيعتبرون الحروب الصليبية حقبة من الوحشية الشديدة ، وأعمال السلب والنهب المروعة ، التي قام بها المرتزقة الغربيون الكفار » .

وهنا قال الشيخ محمد : وهذا الكلام يفسر لكم يا أبنائي دور العقيدة في صياغة مقاييس الناس ، ويوضح لكم أن المستشرق مصبوغ بثقافته الدينية والقومية ، وهي ثقافة احتكت بالمسلمين احتكاكات اتسمت بالسخونة والحدة قديماً وحديثاً ، ومن هنا تأتي تفسيراتهم لتاريخ المسلمين موسومة بنظرة بيئتهم ومقاييسها .

قال سعيد : وهذا ما يؤكده أيضاً تشارلز بقوله : « إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام ، فإن هناك أيضاً قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي ، وأعتقد أن هذا الجهل ينبع من النظرة الجامدة للتاريخ التي ورثناها .

فالعالم الإســـلامي في العصور الوسطى ، من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلسي ، كـــان عالمـــاً ازدهر فيه البحاثة المختصون ورجال العلم ، ولكن بالنظر إلى أننا نميل إلى اعتبار الإســـلام عـــدواً للغرب .. فقد جنحنا إلى تجاهل أو محو أهميته بالنسبة لتاريخنا . فقد قللنا مثلاً من أهمية ٨٠٠ سنة من المجتمع والثقافة الإسلامية في إسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر » .

قال الشيخ : هذه شهادة قيمة تصدر عن رجل رضع ثقافة بيئته بصورة مركـــزة مبرمجـــة ، وأتيحت له فرص لا يتمتع بها كثيرون للتعرف على العالم وأديانه وتياراته ومذاهبه . وهذه الشهادة تؤكد ما قاله سيد قطب بخصوص دراسات المستشرقين .

ومع ذلك فينبغي أن لا تنسوا يا أبنائي أن المستشرقين قد أجادوا وأفادوا كـــثيراً في « **منـــهج البحث التاريخي** » ، وإن كان معظمهم قد سقط في مستنقع « **الموقف السابق** » عند تفسير وقائع تاريخنا ، مما أفسد عليهم الفهم السليم ، ونأى بعامتهم عن الإنصاف والعدل .

وسنتابع الكلام عن رأي سيد في تاريخنا خلال لقائنا القادم بإذن الله تعالى .

المجلس الخامس

- حاجتنا إلى إعادة كتابة التاريخ
- مراحل التاريخ الإسلامي
- كيف نخدم تاريخنا المسطور ؟
- كلمة في مؤرخينا المعاصرين

حاجتنا إلى إعادة كتابة التاريخ

سأل الشيخ محمد : وماذا قال سيد قطب عن تاريخنا يا محمود ؟

أجاب محمود : قال سيد : « إن التاريخ الإسلامي يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج جديد » .

سأل سعيد : **ولم ؟!**

قال محمود : يجيب سيد على سؤالك فيقول : « إن هذا التاريخ موجود اليوم في صورتين :

١- **صورته في المصادر العربية القديمة** : وهذه من التَجَوُّز الشديد أن تسمى تاريخاً .. فهي نثار من الحوادث والوقائع والحكايات ، والنتف والمُلَحِ والخرافات والأساطير ، والروايات المتضاربة والأقوال المتعارضة على كل حال .. وإن كانت بعد ذلك كله غنية ، كمصدر تاريخي ، بالمواد الخام التي تسعف من يريد الدراسة ، ويوهب الصبر ، ويحاول الغربلة .. بالمواد الأولية اللازمة له في بناء هيكل التاريخ .

٢- **وصورته في المصادر الأوروبية** : وبخاصة في أعمال المستشرقين ، وهي الصورة التي تحدثنا من قبل عنها ، وألقينا عليها - في إجمال - بعض الضوء . وهي تعتمد في جملتها على المصادر العربية القديمة .. وهي في أحسن صورها دراسة من الظاهر للحياة الإسلامية - إن صح هذا التعبير - وخير ما فيها هو الجهد في جمع النصوص وتحريرها ، وتنسيقها والموازنة بين الروايات المختلفة من ناحية السند الخارجي ، لا من ناحية الإدراك الداخلي » .

وأردف محمود قائلاً : ويشير سيد إلى الكتابات التاريخية الحديثة التي خطها كتاب معاصرون فيقول : « هناك أجزاء لم تتم من صورة ثالثة للتاريخ الإسلامي ، لم نشأ أن نعتبرها في الفقرتين السابقتين ، لأنها - فضلاً عن كونها أجزاء معدودة - لا تزيد على أن تكون ظلالاً باهتة أو كاملة للدراسات الأوروبية ، حتى وهي تناقش أحياناً أو تعارض هذه الدراسات .

فهي أولاً : تتبع المنهج الغربي في صميمه دون زيادة .

وهي ثانياً : تستمد عناصرها من الدراسات الغربية في الغالب .

وهي ثالثاً : متأثرة بالإيحاءات الغربية من ناحية زاوية الرؤية .

فهي لا تقف في المركز الإسلامي لتطل منه على تلك الحياة .. » .

وهنا سـأل خالد مستغرباً : وماذا يقصد سيد بإعادة كتابة التاريخ ؟! .

أجاب محمود : يضرب سـيد مثلاً يوضح المقصود فيقول : « إن المعارك الحربية والمعاهدات السياسـية والاحتكاكات الدولية وما إليها .. مما يُعنى به التاريخ غالباً أكثر من سـواه .. إنهـا كلها محكومة بعوامل أخرى هي التي يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ .. هذه العوامل هـي الـتي يختلف الباحثون في إدراكها وتقديرها؛ كلٌّ يخضع للفلسفة التي تسيطر على تفكيره وتقديره ، أي لطريقة إدراكه للحياة في عمومها .. » .

قاطع خالد محموداً قائلاً : ولكن تاريخ المسـلمين .. تاريخ بشري .. وهو غير منفصل عن مؤثرات الزمان والمكان !!

قال محمود : وهذا ما يقرره سيد نفسه ، إنه يقول : « ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية ، والمسلمون جماعة من بني الإنسان في حيِّزٍ من الزمان والمكان ، والإسلام رسـالة كونية بشرية غير محدودة بالزمان والمكان .

فإن التاريخ الإسلامي لا يمكن فصله عن التاريخ الإنساني ، وقد تأثرت تلك الفترة – مـن غـير شك – بتجارب البشرية كلها من قبل ، وبخاصة تلك العوامل التي كانت واقعة عند مولد الإسلام ، ثم أثرت بدورها في تجارب البشرية من بعد ، وبخاصة تلك الجهات التي امتدت إليها أو جاورتها ».

ويتابع سيد فيشرح ما يراه قائلاً : « فلا بد إذن عند كتابة التاريخ الإسلامي ،من الإلمام بالصورة التي انتهت إليها تجارب الإنسـانية قبيل مولد الإسلام ، والحالة التي صـارت إليهـا المجتمعـات البشـرية في الأرض ، وبخاصة من ناحية العقائد الدينية ، وسائر ما يتعلـق بهـا مـن أفكـار وفلسـفات ونظريات . ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية وما يتعلق بها من نظم الحكم وسياسـة المال ، وعلاقات المجتمع والأخلاق والأفكار . كي تتبين على ضـوئها حقيقـة دور الإسـلام

وطبيعته ، ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولاً ورفضاً ، وتصور أسباب الصراع وعوامل النصر والهزيمة كاملة ، وعناصر التفاعل ، والتدافع والتلاقي والانعكاس على مر الأيام » .

مراحل التاريخ الإسلامي

بادر سعيد محموداً بسؤال : إن هذا الكلام يوحي بأن لدى سيد تصوراً عن المراحل التي انصرمت ، منذ بزوغ فجر الإسلام وإلى يومنا هذا ، فماذا عندك في هذا الأمر ؟

أجاب محمود : لقد قسم سيد التاريخ الإسلامي إلى فترات على النحو الآتي :

١- **مقدمات التاريخ الإسلامي** : ويقصد بذلك صورة العالم التي آل إليها قبل الرسالة الإسلامية .. وقد سبق أن ذكرنا هذا .

٢- **مرحلة المد الإسلامي** : يقول سيد محدداً هذه المرحلة : « وذلك عندما انساح الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . عندما فاض ذلك الفيض الانفجاري العجيب ، والذي لم يعرف له العالم نظيراً في سرعته وقوته ، لا من ناحية الفتح العسكري وحده ، ولكن من ناحية التأثير الروحي والفكري والاجتماعي أيضاً : أي من الناحية الإنسانية الشاملة ، التي شهدت تحولاً كاملاً في خط سير التاريخ عند مولد هذا الدين ..

والمد الإسلامي لم يقف عند الحدود التي وصلت إليها فتوحاته العسكرية ، فلقد امتدت الموجة الفكرية والحضارة التي كونها إلى ما وراء حدود العالم الإسلامي قطعاً .. » .

٣- **مرحلة انحسار المد الإسلامي** يقول سيد : « وعلى ضوء هذا المنهج - أي في دراسة التاريخ - وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار وعوامله الداخلية والخارجية جميعاً .. وما أثر هذا الانحسار في سير التاريخ ، وفي تكييفه أحوال البشر ، وفي قواعد التفكير والسلوك ، وفي العلاقات الدولية والإنسانية ؟ وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التي استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها في الإسلام ؟ وماذا كسبت البشرية وماذا خسرت من وراء انحسار المد الإسلامي وظهور المد الأوروبي الذي ما تزال تظلنا بقاياه » .

٤- **مرحلة العالم الإسلامي اليوم** : ويبين سيد أن دراسة التاريخ كما يقترحها سوف تساعد على تحديد « دور الإسلام في هذا التاريخ في الماضي وفي الحاضر ، وتتبين خطوطه في المستقبل على ضوء الماضي والحاضر » .

كيف نخدم تاريخنا المسطور ؟

نظر محمود إلى الشيخ محمد فرآه مطرقاً يفكر متأملاً ، فقال له : لقد عرضت عليك يا شيخنا ما قاله سيد بخصوص تاريخنا .. فماذا ترى ؟

قال الشيخ محمد : ما قاله سيد يا أبنائي جدير بالتأمل ، وقد أثار في نفسي أموراً أطرحها عليكم بإيجاز :

أولاً : لا ريب في أننا بحاجة إلى إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي وفق أسس علمية تقدم ماضينا بصورة يستفيد منها حاضرنا . وهذه الحاجة الحيوية تظهر بوضوح إذا تفحصنا المنهج الذي اعتمده مؤرخونا السابقون عند تدوين التاريخ .. وأضرب لكم مثلاً بإمام المؤرخين " الطبري " فقد قال في مقدمة تاريخه : « وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أُحْضِرْتُ ذكره ، إنما هو على ما رُوِّيتُ من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها .. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما ينكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبلنا ، وإنما أُتِيَ من قِبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا » .

فالطبري يا أبنائي سار على سنة أهل زمانه في التصنيف ، فدوَّن ما وصل إلى سمعه معتمداً - في كثير من رواياته - على ذكر « سند الحادثة التاريخية » ، وكان مشهوراً في الدوائر العلمية يومئذ أن « من أسند فقد خرج من العُهْدَة » ، أي : لا يحمل ذاكر « السند » مسؤولية قبول « المتن » ، فالقبول والرفض مسؤولية القارئ أو السامع . وهذا المسلك تجدونه في كتب علماء الحديث ظاهراً جلياً ، حيث تجدون كثيرين منهم قد دونوا ما سمعوه معزواً إلى ناقليه ، وكان هذا - في ظروف عصرهم - يعفيهم من المسؤولية ، لأن القِلَّة التي كانت تقرأ المكتوب .. كانت قادرة على التمييز بين السند الصحيح وبين السند الجريح .

ونحن يا أبنائي في زمان توفرت فيه الكتب على نطاق واسع ، وأضحت مكتباتنا مزدانة بذخائر من كتب مؤرخينا السابقين .. إلا أن قدرة جيلنا على معرفة الخبر المقبول أو المردود ضعيفة .. بل تكاد تكون معدومة!! .. ولا يشك عاقل في الآثار السيئة التي يتركها هذا الضعف في التمييز على قراءتنا تاريخ السابقين . بل لعلكم تذكرون يا أبنائي كيف أن عدم معرفة سند الأحاديث التي تنسب إلى النبي ﷺ .. فضلاً عن غيره .. قد أوقع في أخطاء فاحشة علماءَ أجلاءَ متمكنين من « علم الدراية » إلا أنهم كانوا مساكين فقراء في « علم الرواية » ، فالإمام أبو حامد الغزالي – على سبيل المثال – شحن كتابه « إحياء علوم الدين » بأحاديث قال عنها ابن الجوزي في مقدمة « منهاج القاصدين » : « اعلم أن في الإحياء آفات لا يعلمها إلا العلماء ، وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة ، وقد جعلها مرفوعة .. وإنما نقلها كما اقتراها لا أنه افتراها .. ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع ، والاغترار بلفظ مصنوع »!!

وهذا الذي ذكرته من أقوى الأسباب الداعية إلى خدمة تاريخنا الإسلامي ؛ وخدمة التاريخ يمكن أن تأخذ صوراً متعددة :

١- فقد تكون بتوفير جهود متخصصة ، تُعنى بنقد الروايات ، وبيان صحيحها من سقيمها .. سنداً ونصاً .. مع شرح لغامضها يناسب جيلنا .

٢- ويمكن أن تكون بتهذيب كتب التاريخ ، وتجريدها من الروايات المهزوزة أو المكذوبة .

٣- وما ذكرته آنفاً لا يلغي حاجتنا الماسة إلى كتابة ماضينا – الذي طغت فيه أخبار الحروب والملوك والفتن – وفق معايير علمية تظهر القوانين التي حكمت مسيرة أمتنا أيام قوتها ، وفي مراحل ضعفها .. وتبرز دور الإسلام والمسلمين في الفكر والمجتمع والأخلاق والقانون .. ونحو ذلك .

ثانياً : وحين أقول : نحن في حاجة إلى صياغة معاصرة لأمسنا ، بما فيه من نصر وعطاء أو انهزام وتخلف .. فإني أعترف أن الغرب قد برع في استخدام مناهج البحث والدراسة .. ومشكلتنا الكبرى مع مؤرخيه – وخاصة المستشرقين من رجال الكنيسة – محصورة في استنباطاتهم التي نلمس فيها أحياناً سطحية التحليل ، أو الذاكرة التاريخية ، وأحياناً تبرز الأحقاد بكل وضوح !! .

وقد أحسن سيد قطب حين أكد على الاستفادة من جهد علماء الغرب الذين اهتموا بتاريخنا .. في الجوانب التي أجادوا فيها .. وهذا من رجاحة عقله وإنصافه .

نظر خالد إلى ساعته فرأى أن وقت اللقاء قد أوشك على الانصرام .. فقال للشيخ : لا حرمنا الله من جلساتك الممتعة يا شيخنا الحبيب .. ويسرني قبل انصرافنا أن أسمع تقويمك لجهود مؤرخينا المعاصرين .

كلمة في مؤرخينا المعاصرين

قال الشيخ محمد : المشتغلون بالتاريخ اليوم يا أبنائي تتوزعهم ثلاث فئات :

الفئة الأولى :تنطلق من أرض الإسلام ، وتحاول أن تفهم الماضي وأن تقدمه لناشئتنا بصورة مقبولة ، وجهد هؤلاء مشكور ، وتؤخذ عليهم – بصفة عامة – أمور ، أشير هنا إلى ثلاثة منها :

١– ضعف ملكة التحقيق ، وخاصة دراسة أسانيد الروايات .

٢– بروز موقف الدفاع عن الماضي في مواجهة حملة التشويه ، التي تولت كِبْرها دوائر الاستشراق وتابعهم ناس منا! . وأنا يا أبنائي أمقت النظر إلى تاريخنا على أنه « منزهٌ عن المثالب » وأمقت في الوقت ذاته من ينظر إليه بعين السخط فلا يرى فيه إلا العيوب .

٣– كون الجهد التاريخي ما يزال متسماً بالفردية .. ويفتقد جهد الفريق .

الفئة الثانية : انطلقت من قيم الغرب .. بمؤثراته التاريخية

والمعاصرة .. فسقطوا في براثن « الموقف السابق » الذي يؤول الحوادث ويعبث بها انتصاراً لرأيه!!

الفئة الثالثة : وضعت قدماً في أرض الإسلام ، وأخرى في أرض الغرب .. فأحسنت في جوانب ، ولم يحالفها التوفيق في جوانب أخرى .

على كل حال يا أبنائي .. فإن مجال التاريخ قد بذلت فيه جهود تجديدية ، وهذه أثرت بمقدار حجمها ، وما يزال أمام أرباب الاختصاص طريق لاحبٌ طويل .

وأملي كبير في أن يتحقق حلم من أحلامنا الجميلة .. وذلك حين نرى فريقاً مـــن مؤرخينـــا المحققين .. يشكلون مرجعية في أمتنا ؛ فيعيدون كتابة ماضينا .. ويعملون على تســـجيل حاضرنا .. وفق معايير الحق والعدل والإنصاف . وهذا الإنجاز الذي نتطلع إليه ، ســـيكون زاداً للبـــشرية وعوناً لها على فهم رسالة الإسلام الكريمة الرحيمة .

المجلس السادس

- مفاسد طغيان المذهب على المنهج
- التفسير الإسلامي والتفسير الوضعي للتاريخ

مفاسد طغيان المذهب على المنهج

تنهد خالد وتوجه إلى الشيخ محمد قائلاً : لقد ذكرتني يا شيخنا الجليل بحديثك أمس عن « الموقف السابق » وأثره في الحكم على حوادث البشر ، بكتاب « التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير » . فقد عالج مؤلفه الدكتور فتحي عثمان قضية « طغيان المذهب على المنهج » ، ورصد ببراعة « عيِّنة » من كتابات فئة من أبناء المسلمين ، تأثرت بالمدارس الفكرية المادية التي نشأت في الغرب ، فجاءت كتاباتهم داعية إلى مذاهبهم من خلال العرض التاريخي ، وهذا من أغرب الغرائب .

ارتسمت على فم الشيخ بسمة ألم عميق ، وقال معقباً على كلام خالد : آهِ ثم آهِ ثم آهِ يا خالد! إن طغيان المذهب على المنهج ليس جديداً في أمتنا يا بني ، فقد سبق أن دخل إلى عقول فريق من المسلمين مفاهيم غريبة عن الإسلام ، وإذا بأصحاب تلك المفاهيم يلوون أعناق نصوص القرآن والسنة ، لتتفق مع مذهبهم العقدي ، وأعني بذلك « علم الكلام » المنبثق عن الفلسفة الإغريقية . أو مع مذهبهم الذوقي ، وأقصد به « التصوف » . أو مع مذهبهم السياسي ، والمثل الواضح على ذلك « التشيع » .. إلى آخر قائمة طغيان المذهب على المنهج!! .

يا حسرة على المسلمين!

إن سيطرة المفاهيم الوافدة من خارجهم – أو المخترعة من قِبَلِهم – على مراكز العلم والتوجيه والسياسة ، في القرون السالفات ، وفي عصرنا الذي نعيش أيامه ونتجرع آلامه ، قد أثخن أمتنا بجراح قاتلة !!

وأحس الشيخ محمد بأنه قاطع خالداً قبل بيان ما يريد ، فتوقف عن الاسترسال في الحديث عن الآلام ، وقال : هات ما عندك يا خالد !

قال خالد : ذكر الدكتور فتحي عثمان في براعة استهلال كتابه الكلام الآتي :

« في الخمسينيات .. أخرج الدكتور طه حسين كتابه " الفتنة الكبرى : عثمان " .. فجاء

استهلالاً بالنظر إلى وقائع التاريخ الإسلامي من زاوية " المادية التاريخية " أو" التفسير المادي للتاريخ " .

ولكن هذا الاستهلال سار إلى وجهته متأنياً متمهلاً على استحياء ، يمهد فيه الأستاذ الدكتور لما يرى من الفروض والاستنتاجات ، بما يحسبه واجباً من تحرج وتحوط . فأنت لا تخطىء في صدرها عبارات مثل " وأكاد أعتقد .. " و " يوشك أن .. " إلى غير ذلك مما يتميز به أسلوب الكاتب ، وما يجعله " وجهة نظر " تقطع ولا تُلزم » .

ويضرب الدكتور عثمان مثلاً من كلام طه حسين ، فيقول : « ومن ذلك ما يقوله المؤلف مثلاً عن رسالة الإسلام : « .. وكان أغيظ ما غاظ قريشاً من النبي ودعوته ، أنه كان يدعو إلى هذا العدل وإلى المساواة ، لم يكن يفرق بين السيد والمسود ، ولا بين الحر والعبد ، ولا بين الغني والفقير ، وإنما كان يدعو أن يكون الناس جميعاً كأسنان المشط ، لا يمتاز بعضهم عن بعض .. وقد سخطت قريش أشد السخط وأعنفه على النبي لما أظهر من ذلك ، حتى **لأكاد أعتقد** أنه لو قد دعاها إلى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاجتماعي والاقتصادي ، ودون أن يسوي بين الحر والعبد وبين الغني والفقير وبين القوي والضعيف ، ودون أن يلغي ما ألغى من الربا ، ودون أن يأخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء .. أقول : لو قد دعاهم النبي إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي ، لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد ، فما كانت قريش مؤمنة بأوثانها إيماناً خالصاً ، ولا كانت قريش حريصة على آلهتها حرصاً صادقاً ، وما كانت قريش إلا شاكة ساخرة ، فتذر الأوثان وسيلة لا غاية .. وسيلة إلى استهواء العرب واستغلالها .. » (الفتنة الكبرى ص ١٠-١١) .

ويعقب الدكتور فتحي عثمان على كلام طه حسين بقوله :

(ولا مراء في أن رسالة الإسلام جاءت تحرر الإنسان ، وتضع عنه الإصر والأغلال ﴿ ... **يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ... ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

روى الطبري في ابتداء أمر القادسية من أخبار سنة ٤١ للهجرة ، أن ربعي بن عامر دخل على رستم قائد الفرس في مجلسه ، فسأله : ما جاء بكم ؟ فقال : « **الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء**

من عبادة العباد .. إلى عبادة الله وحده

ومن ضيق الدنيا .. إلى سعتها

ومن جَور الأديان .. إلى عدل الإسلام

فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، لندعوهم إليه .. ») !!

ويقول الدكتور عثمان : « ولا مراء في أن القرآن نعى كثيراً على المترفين ، وتوعدهم بالعقاب الأليم ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء : ١٦] .

ولا مراء في أن الإسلام لا يضار حين يقال : إن رسالته جاءت انتصاراً للمستضعفين من الجبابرة .. وأنها لقيت التأييد في جزيرة العرب ، ثم في البلاد الخاضعة لإمبراطوريتي الفرس والروم ، لأنها هتفت بالحرية والعدل .. فإن الله يرسل رسله ، وينزل كتابه ، لخير الناس ، وليقوموا بالقسط .. » .

قاطع سعيد خالداً سائلاً : فأين المشكلة إذاً ؟! .

أجاب خالد : إنها كامنة في تفسير التاريخ ، وإلى هذا أشار الدكتور عثمان بقوله : « لما كان العقل الإنساني يتردى في عثرات ومزالق من جناية التعميم والإطلاق .. فإن الإيمان بالتفسير ينبغي ألا يسلط العقل على الوقائع ، حتى يصهرها ويشكلها في خدمة التفسير!! » .

ثنَّى سعيد بسؤال آخر : وهل اكتفى الكاتب بالحديث عن كتابات طه حسين يا خالد ؟

أجاب خالد : لا يا سعيد ، فقد تحدث أيضاً عن كتاب آخر ومجموعة كتابات أخرى ، وفنَّد أهم ما جاء فيها من أغاليط في تفسير التاريخ الإسلامي ، أما الكتاب فيقول عنه :

« وفي الستينيات مضى الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي شوطاً أبعد في وجهته ، " التفسير المادي " للتاريخ الإسلامي ، واختار سيرة رسول الإسلام مجالاً لبحثه ، فقدم كتابه " محمد رسول الحرية " .. » .

وأما مجموعة الكتابات فيقول عنها : « وفي يناير ١٩٥٦م ظهرت مجلة " الكاتب " تستهل بحثاً متصلاً ، استغرق عدة أعداد من المجلة ، عن " الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام " ، جاء في حلقته الأولى :

« فإذا كان القرآن الكريم قد حرم الأعمال المصرفية ، وهي الضربة القاصمة لرأسماليي مكة ، كما وضع قواعد للتجارة لا تعرف الاحتكار أو التحكم في أسعار السلعة ، .. ، فكل ذلك هو ما تأباه قريش ، وهو الذي جمع سادة قريش ووحدهم لقتال الإسلام والقضاء عليه ، وهو نفسه الذي حدد من اللحظات الأولى موقف الكتل السياسية المختلفة منه ، وموقف الطبقات الاجتماعية المؤيدة ، والمعارضة له .. »

ويخلص الدكتور فتحي عثمان بعد ذلك التقديم إلى القول : « وهكذا تحولت الفروض والاستنتاجات التي كانت تطل في تحرج واستحياء ، من قلم الدكتور طه حسين .. إلى مقررات قاطعة حاسمة فيما ظهر من كتابات تالية! » .

اغتنم محمود فرصة توقف خالد وسأله : لقد نقلت من كلام الدكتور فتحي عثمان عرضه للمشكلة ، فهل أبدى في كتابه رأياً في ظاهرة توظيف المنهج لصالح الفكرة السابقة ؟

قال خالد : طبعاً! فإن الكتاب من ألفه إلى يائه قد عالج هذا الموضوع ، وفي نهاية فصل مثير : « العامل الاقتصادي .. ودراسة التاريخ الإسلامي » قال الدكتور فتحي عثمان كلاماً حسناً تحت عنوان معبر « **حتى لا يطغى " المذهب " على " المنهج "** » . فقد جاء فيه :

« ولا نظن أن ثمة غضاضة في النظر إلى التاريخ الإسلامي من شتى الزوايا ، ولا في الذهاب في تفسيره مع مختلف مذاهب التفسير .. ولكن حتى لا يطغى حماس " المذهب " على دقة " المنهج " – وهو أصل العلم الأصيل – ينبغي أن تتوفر ضمانات ، مثل :

✧ أن يأتي التفسير تالياً لثبوت الواقعة التاريخية وحجيتها .. لا أن تُجر الواقعة التاريخية أيّاً كان حظها من الثبوت والحجية لتعزيز تفسير بعينه .

✧ أن يكون التفسير متمشياً مع الواقعة التاريخية ، ومع الطابع العام للمجتمع في العصر والبيئة اللذين ندرس فيهما الواقعة ..

✧ .. إن التفسير رأي في نطاق " الذهن " لا حدث في مجال " الواقع " .. إنه لا يعـــدو أن يكون " فرضاً " أو " نظرية " تعرض" احتمالاً " من " الاحتمالات " » .

التفسير الإسلامي والتفسير الوضعي للتاريخ

ونظر الشبان الثلاثة إلى الشيخ محمد نظرات تروم استخراج ما عنده من رأي .. فقد أصـــغى طويلاً وينبغي أن يعرفوا ما يدور بخلده . قرأ الشيخ ما في عيون الشبان من سؤال ورجاء فبـــادرهم قائلاً :

إن أهم قضية في تفسير التاريخ تكمن في جنوح كثير من النـــاس إلى اســـتمداد التـــصورات الاعتقادية من القصص ، أي التاريخ البشري ، مع ما تحمله هذه التصورات من نتـــائج تظهـــر في التشـــريع والسلوك الاجتماعي ، وفي الاقتصاد والأخلاق . وهذا الخطأ الفادح سببه معانٍ ظهرت في النفس ، ضمن ظروف معينة ، وإذا بأصحابها يعمدون إلى البرهنة على صحتها من قصص التاريخ!!

وهذه المسألة يا أبنائي تعد من أهم ما يفرق التفسير البشري للتاريخ عن التفـــسير الملتـــزم بالمنهج الرباني .. في تفسير البشر – ومنها مدارس التفسير الغربي – يعطـــون " ناســـاً " حـــق الاستحسان والتقبيح .. ومن هنا برزت فكرة " النسبية " في فكر الغـــربيين ، ومنـــها " نـــسبية الأخلاق " !! ، أما في التفسير الإسلامي .. فإن تاريخ البشر يوزن بميزان يعصم الناس من استحسان ما هو قبيح في ذاته ، أو استقباح ما هو حسن في نفسه .

تدخل محمود قائلاً : أرجو أن تبسط لنا هذه المسألة فإني أراها جديرة بالبيان!

قال الشيخ : حسناً يا بني! .. لو تصفحنا يا محمود كتاب الله عزَّ وجلَّ ، لرأينا ببســـاطة أن القصص القرآني يشغل مساحة كبيرة من آيات الذكر الحكيم . ولو تأملنا في قصص القرآن لوجدنا أن الهدف من إيرادها يتلخص في « إثارة الفكر لدى الإنســـان ، وتحريضه على البحـــث المستمر عن الخطأ والصواب » بهدف « الدعوة إلى التمسك بالصواب ، والتحذير من اتبـــاع الخطأ » ، وسأضرب لك مثلاً بسورة يوسف عليه السلام ، فبعد أن قص علينا ربنا الجليل من أنباء يوســـف ، قال في آخر آية : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَـــابِ** ... ﴾ [يوســـف :

١١١] ومن منطلق « العبرة »جاءت آيات تطالب الرسول ﷺ أن يتعظ بقصص الأنبياء ، وأكتفي هنا بمثل واحد : قال الله تعالى في ختام سورة القلم مخاطباً الرسول الكريم ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۞ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ . [القلم : ٤٨-٥٢] .

نظر سعيد إلى الساعة وقال : جزاك الله خيراً على حسن بيانك يا شيخنا ، وقد حانت ساعة انفضاض مجلسنا لهذا اليوم ، فهل تود أن ترشدنا إلى أمر ترجو ألا ننساه ؟ .

قال الشيخ : نعم يا أبنائي .. أود أن يبقى محفوراً في أذهانكم ، الفرق بين منهج الإسلام في دراسة التاريخ البشري وبين المناهج الوضعية .. قديمها وحديثها ..

◘ فالإسلام يسوق القصة التاريخية للتدليل على سلوك الإنسان ، فرداً وجماعة ، في حالتي الإحسان أو الإساءة .. داعياً إلى الاهتداء بالمحسنين .. ومحذراً من اتباع سبيل المجرمين .. وعنده مقياس دقيق يقيس به الأمور .. إنه « الوحي » .

◘ أما المناهج الوضعية .. فإنها تحاول أن تستمد « مذهبيتها » من وقائع التاريخ .. بصرف النظر عن دلالة الوقائع وحجيتها .. فالمذهب يلمع في الذهن ، ثم يؤتى بالتاريخ .. وبطريقة انتقائية .. ليعزز وجهة النظر ، وهذا ما عبرنا عنه بـ « النظرة السابقة » التي تتسلط على قصص التاريخ البشري ، وإذا بها تخترع للإنسان منهجاً تتفرع عنه تشريعات وقواعد للسلوك تهلك الحرث والنسل .

ونحن يا أبنائي .. قَدَرُنا أننا وُجِدنا في عصر رهيب . اجتمعت فيه مذهبيات غربية موروثة عن أجيال التخلف ، ومذهبيات محدثة لها بريق خداع .. ولكي نسلم من تَقَمُّص مذهبية تَنْقَضُّ على النصوص الشرعية ، وعلى التاريخ ، بالتأويل والتحريف ونحو ذلك .. فإننا بحاجة إلى جهد كبير بصير .. يخلصنا من رواسب الماضي السلبية .. ويقينا من آثام الحاضر .. فإن لم نفعل ذلك وتقاعسنا فإن مسؤوليتنا كبيرة .

المجلس الأخير

- الوقت رأس مال الإنسان
- علاقة السيرة النبوية بالتاريخ
- سر اهتمام جيلنا بالسيرة النبوية
- كليات التاريخ . . الواقع والأمل
- خطوات في الاتجاه الصحيح
- الشيخ يسأل الشبان

الوقت رأس مال الإنسان

رحب الشيخ محمد بجلسائه الشبان ثم قال بنبرة حزينة : لقد سعدت كثيراً بصحبتكم يا أبنائي وبالحوار الممتع الذي كان بيننا ، وقد أزف الرحيل ، وعليّ أن أغادركم غداً! .. ألا ما أصدق الشاعر في قوله :

وكل مسافر سيؤوب يوماً إذا رُزِقَ السلامةَ والإيابا

قال سعيد والحزن باد على محياه الناضر : أتقول غداً يا شيخنا ؟!

أجاب الشيخ : نعم يا بني!

اغرورقت عينا محمود بالدموع وردد بصوت متهدج :

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بـه مَنْ ذا يرحِّب بالزمان المُبْعِدِ ؟!
يا ليتَ كلَّ الدهر يومٌ واحدٌ إنْ كان تفريقُ الأحبةِ في غدِ!!

قال الشيخ : هوّنوا عليكم يا معشر الشباب .. فوالله إني لأرجو أن تكون الساعات التي عشناها نتجاذب أطراف الحديث في موضوع التاريخ .. في صحائف أعمالنا خيراً يوم نلقى الله عزَّ وجلَّ .. فأنتم يا أبنائي تعلمون أن « الوقت » هو رأس مال الإنسان ، فإن شغله بما ينفع أفلح دنيا وآخرة ، وإن بدَّده في التُّرهات وسفساف الأمور حصد صاباً وندامة .. وقد يرى ذلك في الدنيا :

- **ضعفاً في الفهم والإدراك .**
- **وخوراً في العزيمة على الرشد .**
- **وإيثاراً للعاجلة الفانية على الآخرة الباقية .**

إننا قادمون على يوم نحاسب فيه عن عمرنا فيمَ أضعناه ؟ وعن شبابنا فيم أبليناه .. إنه ﴿ **يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ٨٨-٨٩] .

فاعمروا أوقاتكم يا معشر الشباب بالنافع المفيد .. تستقم فهومُكم وقلوبُكم وأعمالكم .

علاقة السيرة النبوية بالتاريخ

قال خالد : جزاك الله خيراً يا شيخنا على هذه اللفتة الطيبة ، وبما أن مجلسنا هذا هو الأخير ، فاسمح لي أن أستوضحك عن أمر له علاقة بموضوع حوارنا .

قال الشيخ : سل عما بدا لك يا بني ، وسأبذل لك ما عندي بكل أريحية .

سأل خالد : ما قولك في السيرة النبوية .. هل تعتبر جزءاً من التاريخ يا تُرى ؟

أجاب الشيخ : قبل أن أجيب على هذا السؤال أحب أن أقول لكم شيئاً يتعلق بـــ « المصطلحات » . لأن التعامل مع « المصطلح » فنٌّ لا يجيده إلا قلة من الناس ، هذا من ناحية ، وهناك جانب آخر وهو : إن بعض المصطلحات تكتسب أهمية خاصة في مرحلة ما ، بفعل الظروف المحرِّضة على إبرازها ، وقد تأخذ أهمية أقل بفعل ظروف أخرى .

خذوا مثلاً مصطلح « السيرة النبوية » وكيف تعامل معه المسلمون في العصور السالفة وفي عصرنا .. ففي ماضيات الأيام كانت السيرة تعني « الجانب التاريخي من حياة الرسول ﷺ». وبهذا المعنى ذكر المؤرخون السيرة في كتبهم . فلو نظرنا – على سبيل المثال – في كتاب « البداية والنهاية » للإمام ابن كثير ، فإننا نجده قد ذكر السيرة النبوية كجزء من السرد التاريخي الذي بدأه بذكر بدء الخلق وأخبار الأولين .. وختمه بما وصل إلى علمه من أخبار عصره .

وبتوسيع النظر يظهر يا أبنائي أن القرون الأولى من هذه الأمة كانت تستعمل مصطلح « المغازي » بدلاً من « **السيرة** » ، باعتبار أن الغزوات هي الجانب التاريخي الأكثر إثارة من حياة رسول الله ﷺ ، ويشهد لكلامي هذا زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك في قوله : « كنا نُعَلَّمُ مغازي النبي ﷺ كما نُعَلَّمُ السورة من القرآن » (البداية والنهاية ٢٤٢/٣) ، ولا تخفى على لبيب المسوغات التربوية التي كانت تدفع الأجيال الأولى من المسلمين إلى الحرص على تعلم مغازي رسول الله ﷺ .

والحق أن السيرة النبوية كانت موضع اهتمام المسلمين في العصور كافة ، وكان كل أهل حقبة زمنية يبرزون من السيرة الصفحات التي يرون أنها تعالج قضايا يهتمون بها ، وتشكل مرجعية تضبط مواقفهم وتصرفاتهم .

س اهتمام جيلنا بالسيرة النبوية

تدخل محمود قائلاً وسائلاً : لا شك في أن سيرة نبينا ﷺ قد حظيت باهتمام كبير من قبل المسلمين ومن جانب الآخرين .. وقد شد انتباهي بشكل خاص بروز الدراسات التحليلية ، وانتشار ظاهرة « فقه السيرة » بصورة لم يسبق لها مثيل .. فكيف يفسر شيخنا هذا الاهتمام الكبير ؟ .

قال الشيخ محمد : إن اهتمام المسلمين المتنامي بسيرة رسول الله ﷺ في عصرنا له ما يسوِّغه .. فالعالم الإسلامي – بعوامل من داخله وأخرى من خارجه – يشكو من أمرين خطيرين لهما آثار مدمرة :

الأول : إقصاء الإسلام عن مركز قيادة الأمة .. وبخاصة في التشريع والحكم والسياسة .

الثاني : فرض أفكار الغرب وقيمه في مؤسسات الأمة وفي حياة الناس .

في هذا الجو المشحون بألوان الصراعات والتحديات .. وجد دعاة الإسلام أنفسهم أمام واجب « تغيير الأمة » وهو يختلف بطبيعته ومقتضياته عن واجب « الإصلاح الجزئي والترقيع الموضعي » .

وبما أن السيرة توحي بطريقة التعامل النبوي التغييري مع الوسط المحيط .. فإن دعاة الإسلام وجدوا أن السيرة النبوية تمثل الجانب الحركي في الدعوة الربانية .. فانكبوا على دراستها . وأضرب لكم مثلاً : إن جو الصراع الداخلي ، وشروطه ووسائله ، فرض على دعاة التجديد الإسلامي البحث عن طريقة ، يرونها شرعية ، للرد على التحديات ومواجهة أطراف الصراع . وهذا فرض مجموعة من الأسئلة الملحة .. مثل :

▫ هل نحن في مرحلة مكية .. نُستضعف فنصبر ونتابع طريق الدعوة إلى أن يأذن الله بتغـــيير الأوضاع ؟

أم أننا في عهد مدني .. الصبر المكي فيه ذل لا يُقبل .. ولا بد من حمل السلاح في مواجهـــة الخصوم ؟

▫ هل « الجهاد » بمعنى " القتال " يخضع لمرحلية الأحكام أم لا ؟

▫ هل التنظيم بهدف تجديد الدين وإقامة دولة الإسلام جائز أم واجب أم حرام ؟

▫ هل العمل السري مشروع أم ممنوع ؟

▫ هل التعامل مع الحكام « العلمانيين » جائز أم أنه مرفوض .. لأنه يقتضي « المداهنـــة » ولا بد حياله من : ﴿ **لكـــم دينكم ولي دين** ﴾ ؟ .

إن هذه الأسئلة وأضرابها تدل على المكانة السامقة التي باتت تحتلها ســـــيرة الـــنبي ﷺ في تكوين المســـلم في ظروف أمتنا وعصرنا .. وهذا الاهتمام الكبير بسيرة رسول الله ﷺ يبين لنـــا أن هناك شعوراً عميقاً لدى دعاة الإسلام مفاده : إن الله تعالى قد أرســـل رســـوله ﷺ بـــــ « الرســـالة » المحفوظة في القرآن والسنة ، وبـــ « طريقة العمل » لتحقيـــق الرســـالة ، وهـــي المسطورة في السيرة العطرة .

سأل ســـعيد : ألا يرى شيخنا أن هذا الموقف من السيرة قد أخرجها عن موضوع التـــاريخ وأدخلها في موضوع التشريع ؟! .

أجاب الشـــيخ : وهذا السؤال يدفعني إلى توضيح ثلاثة أمور تتضمن الجواب على سؤالك :

الأول : ضرورة التثبت من وقائع السيرة ، فلم يعد مقبولاً التساهل في رواية قصصها كما درج على ذلك السابقون .

الثاني : يبقى لسيرة النبي ﷺ جانبها التاريخي ..خذوا مثلاً صفحات التكذيب والأذى والإخراج في مرحلة الدعوة .. فإنها تلهمنا « الصبر » في جهاد الدعوة هذه الأيام ، وتذكرنا بـ « فقه التثبيت » الذي ورد في آيات القرآن ، منها قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ .

﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** ... ﴾ [الأحقاف : ٥٣] .

﴿ **وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ... ﴾ [الرعد : ١٢٠] .

الثالث : لا يصح الاعتماد على كتب السيرة فقط في تحديد « منهج العمل » ، فلابد من الرجوع إلى القرآن والسنة للتعرف على الضوابط المناسبة للعمل الدعوي في الظروف المتقلبة .

كليات التاريخ .. الواقع والأمل

قال سعيد : لقد تحدثنا كثيراً عن التاريخ .. ولم نعرج على « كليات التاريخ » المنتشرة في ربوع العالم الإسلامي .. ويسعدني أن أسمع في مجلسنا هذا تقدير شيخنا للجهود المبذولة في هذه الصروح ؟!

قال الشيخ محمد : هذا موضوع ذو شجون يا سعيد! .. ويحضرني أن أذكر بين يدي الجواب حقيقتين من حقائق الاجتماع البشري ، وقد ذكرهما رسول الله ﷺ في مناسبات كثيرة .. وأكتفي هنا بذكر حديثين :

الأول : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ ، لا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً** » رواه مسلم وغيره .

ويعرّف ابن منظور في « لسان العرب » الراحلة بقوله : « الراحلة من الإبل البعير القوي على الأسفار والأحمال ، وهي التي يختارها الرجل لمركبه على النجابة وتمام الخلق وحُسْن المنظر ، وإذا كانت في جماعة الإبل تبيَّنت وعُرفتْ » ويؤكد ابن منظور أن اسم « الراحلة » يطلق على الذكر والأنثى من الإبل .

فهذا الحديث النبوي يدل على أننا إذا نظرنا إلى أي فرع من فروع المعرفة أو فن من فنـــون الصناعة .. فإننا واجدون الآتي :

١- أكثر المنتمين إلى المعرفة أو الصناعة مســـتفيدون مما هو موجود .. وليسوا قادرين على الإضافة والإبداع أو الاختراع .

٢- وأقل من القليل هم المؤهلون لحسن الفهم والتفاعل الحي مع الواقـــع الـــذي يعيـــشونه .. وهؤلاء هم القادرون على تنمية المعارف وتطوير الصناعات .. وهؤلاء الأقلون هم الأئمة المجتهدون في كل فن .. أو ما عبر عنه الحديث بـــ « الراحلة » .

فإذا نزّلنا هذا النص النبوي على « كليات التاريخ » فإننا نجد أن هذه الصروح العلمية تعمل على توليد « الرواحل » و « الإبل » .. فما كل من درس في كلية صار مجتهداً مبدعاً في فن المعرفـــة الذي درسه .. وفي الدارسين جميعهم خير .. وهذه الحقيقة ينبغي أن تُفهم لئلا نظلم الجهود المبذولة في هذا المضمار وغيره .. وهذا الأمر ليس خاصاً ببلادنا الإسلامية .. بل نراه ونلمسه في كل أنحـــاء الدنيا .

الحديث الثاني : عن زيد بن ثابت ﷺ قال : قال رسول ﷺ : « **نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا ، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ ،فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْـــهٍ لَـــيْسَ بِفَقِيـــهٍ** » رواه الترمذي وغيره بسند صحيح ، وفي رواية عند الإمام أحمد وغيره عن أنس ﷺ قال : قال رسول ﷺ : « **نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ، ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ** » .

إن هذا النص النبوي الكريم يحدثنا عما أطلق عليه علماؤنا فيما بعد :

١- **علم الرواية** : الذي يهتم بـــ « حفظ المتن » .

٢- **علم الدراية** : الذي اهتم بـــ « فقه المتن » .

وقد يجتمع هذان العِلمان في رجل .. وهذا أندر من النادر .. وفي الأعم الغالب يختص ناس من أهل العلم بـــ « الرواية » وآخرون بـــ « الدراية » . وهذا لا ينفي أن يكون عند أهل الحديث دراية

ما .. أو عند الفقهاء معرفة بالرواية .. فقد يأخذ كل مختص من اختصاص الآخرين بنصيب يكبر أو يصغر بحسب الاهتمام والقدرة وتوفر الظروف المساعدة ..

ونحن يا أبنائي في أمس الحاجة إلى تجنيد طاقات مؤهلة قادرة .. تهتم بتاريخنا من حيث الرواية .. وتكون مهمتهم الأولى : « تنقية التاريخ من الروايات الساقطة » .. ولا يخفى على عاقل أن جهد أهل الرواية « شرط صحة » لنضج ثمار أهل الدراية .. فقديماً قيل : « أثبت العرش ثم انقش » .

قال محمود بصوت متهدج : ولكن على الرغم من أن كليات التاريخ تُخرِّج كل عام آلافاً مؤلفة من دارسي التاريخ .. فإن هذا الثغر ما يزال يشكو من طامات مهلكات .. فكيف تفسر هذه الظاهرة ؟! .

أجاب الشيخ محمد : ينبغي ألا ننسى يا أبنائي الظروف التي ولدت في ظلها كليات التاريخ وغيرها من فروع المعرفة الإنسانية .. فعامة المؤسسين كانوا : إما مخلصين غير مبدعين .. وإما مقلدين لمناهج الغربيين في دراسة التاريخ وتفسيره . فإذا أضفنا إلى ما سبق ذكره « ضعف الإمكانات » وخاصة في ظل دول التجزئة .. فإننا لا نستغرب ما نراه من ضعف في النتائج التي نلمسها بألم وحسرة! .

وأنصحكم يا أبنائي بأن تنطلقوا في تقويمكم لكل أمر :

- من ظروف المرحلة .. بما في ذلك إنسانُها .
- ومن حقائق الاجتماع البشري.. ومن جملتها هاتان الحقيقتان:

١- إن هناك فرقاً بين « الحفظ » وبين « الفقه » .

٢- وهناك أيضاً تفاوت فطري في كمية المحفوظ وفي القدرة على الفهم والإدراك .. بين الذين ينتمون إلى أي فرع من فروع المعرفة البشرية .

والأمم الحية تنهض بتوفر عدد مناســـب من الحفاظ والفقهاء في كل مجالات المعرفة .. وبتكامل جهود هؤلاء جميعاً .. ولا تنسوا يا أبنائي أن « القيادات الآسرة » قليلة في كل فن .

فإذا نظرنا إلى كليات التاريخ في بلادنا الإسلامية .. فإننا نرى أنها قطعت أشواطاً على طريق لاحب طويل ..

وأنتم تدركون أن هذا المجال الخطير لا تستقيم أموره إلا بتعانق ثلاثة عوامل :

١- **المنهج المناســـب** : وهذا لا يتوفر في الواقع بمجرد الرغبة الصادقة .. لأن المنهج يحتاج إلى مواهب قادرة على صياغته وفق خصوصيتنا الثقافية « الربانية » .

٢- **المدرس الكفء** : الذي تتوفر فيه مواصفات « علمية وعقلية وحضارية » عالية .. مع إتقان مناسب لكل من علمي : « الرواية » و « الدراية » .

٣- **الإمكانات المادية** : التي تساعد على انطلاقة مباركة .. وتسهم في توليـــد أســـباب ووسائل التطوير المنهجي حتى تستوي الدراسات التاريخية على سوقها .

فإذا وسَّعتم النظر في واقع كليات التاريخ في بلادنا .. على ضوء العوامل التي ذكرتها آنفاً .. لهالكم حجم المشكلات الناجمة عن النقص والعجز في المناهج والمدرسين والإمكانات!! .. ومن هنا أقرر : إن هذه الكليات تقوم بدور « لازم » ولكنه « غير كاف » .

خطوات في الاتجاه الصحيح

نظر الشيخ إلى خالد وقال مبتسماً : ما بك يا خويلد ؟! ما لي أراك مطرقاً ؟

أجاب خالد : إنني أفكر في حديثنا عن التاريخ والمؤرخين .. وعن حاجتنا الكبيرة إلى مؤرخين رواد .. يسهمون في تقريب ماضينا إلى أجيالنا المعاصرة .. فهل يرى الشـــيخ أن الذي نهفو إليـــه ممكن التحقيق ؟!

قال الشـــيخ محمد : إن الحديث عن التاريـــخ وعن دوره في حاضر أمتنا ومستقبلها المنظور .. قد أصبح الشغل الشاغل لتيار من الغيورين ومن أصحاب الاختصاص ، ولقد ذكرنا في لقاءاتنا أمثلة محدودة من هذا الركب الكريم ، ولا ريب في أن جهود المنظرين ، والمهـــتمين بالروايـــات ، والمشتغلين بالدراسة والتحليل .. قد صنعت أشياء كثيرة وفيرة .. والحمد لله .

صحيح أن عامة الجهود ما تزال فردية ، ولكن الرغبة في إبراز عمل جماعي ما تزال قائمة أيضاً .. وعلى كل حال فإن جهود الأفراد النابهين تؤثر في اتجاهين :

الأول : توفير دراسات تسلط الأضواء على جوانب قوة أو ضعف في تاريخنا .. يستفيد منها الدارسون المختصون .

الثاني : تقديم مادة تاريخية أكثر نقاء وأعمق استنباطاً .. يعتمد عليها عامـــة النـــاس الـــذين يحتاجون « الوسيط » الذي يحسن عرض وقائع التاريخ ، وأذكر هنا مثالين :

أولهما : سلسلة الكتب التي أتحف بها المكتبة الإسلامية الأستاذ محمود شاكر .. تحت عنوان « التاريخ الإسلامي » والتي تقدم مراحل تاريخنا بتركيز شديد .. مع التنبيه إلى جوانب هامة . فمثل هذا الجهد المشكور نحن في حاجة إليه .. ولكن لا يصح الاكتفاء به والوقوف عنده .

وثانيهما : مجموعة الكتب التي دبجها يراع الدكتور عماد الدين خليـــل ، مثـــل : « دراســـة في السيرة » و « ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز » و «نور الدين محمود وتجربته الإسلامية » فقد ركز الدكتور خليل على العرض الشمولي واستنباط الدروس والعبر .

إن مثل هذه الجهود – وهي تكثر يوماً بعد آخر والحمد لله – خطوات في الاتجاه الصحيح .. وتمهد لظهور عمالقة في هذا المضمار .. ويبقى للسابق فضله .. لأنه سار بين الأشواك وتحمل كثيراً من اللأواء .

الشيخ يسأل الشبان

صمت الشيخ محمد هنيهة ثم قال : والآن قل لي يا سعيد! ما الذي جنيته من لقاءاتنا الممتعة ؟

أجاب سعيد : لقد أخذت عنك يا شيخنا الحبيب ما لا طاقة لي بتعداده في مجلسنا هذا .. وسأذكر ما يحضرني في هذه اللحظات .. لقد أيقنت :

❍ أن لكل أمة خصوصياتها التاريخية النابعة من ثقافتها وظروفها .. وأن من العدل أن نستحضر هذه الحقيقة عند دراسة تاريخ أمة من الأمم .

❍ وأن التاريخ علم بسنن الاجتماع .. يلقي في روع الأجيال دروساً في « الصواب » و « الخطأ » . وأنه لكي تتم الاستفادة من هذا العلم ينبغي أن ينهض بواجب دراسته علماء جهابذة .. تطمئن القلوب إلى أمانتهم العلمية ، وإلى قدرتهم على الفهم والاستنباط .

قال الشيخ : هات ما عندك يا محمود!

قال محمود : أدركت يا شيخنا من إرشاداتك النافعة :

● أن سنن الاجتماع البشري ميسرة للبر والفاجر والمؤمن والكافر ، وأن الذي يتعرف إلى « السنن الإيجابية » ثم يستخدمها بكفاءة وحزم .. فإنه يحصل على نتائجها ..

أما من جهلها .. أو عرفها و لم يعمل بها .. فإنه يقع في براثن « السنن السلبية » .. فإذا حلت هذه في أمة أتت على بنيان عزتها من القواعد !!

● وأن النظرة الجزئية إلى التاريخ الغابر أو المعاصر مضللة خادعة ، وقد تسفر عن ظلم كبير وخطأ جسيم .

● وأن التقليد يُلزم المقلد بمحاكاة الماضي ، وهذا يفرض عليه أن يعيش خارج إطار عصره ، ويخرِّج أجيالاً « منفعلة غير فاعلة » تُقاد ولا تقود .

نظر الشيخ إلى خالد وقال : والآن جاء دورك يا خالد .

قال خالد : لقد تعلمت :

• أن مكارم الأخلاق حين تتجمع في ضمير أمة من الأمم .. فإنها تخطو في حاضرها على بساط الكرامة .. وتطل على مستقبلها بإنجازات باهرة .

• وأن الأخلاق على ضربين :

١- **أخلاق إنسانية أساسية** .. وهي في متناول الناس جميعاً .

٢- **وأخلاق إسلامية** .. يحصل عليها الصادقون في إيمانهم بالله عزَّ وجلَّ .

وأن الأمة التي تفتقر إلى الأخلاق الأساسية - المسؤولة عن بناء الأمم وعمارة الأرض - لن تحافظ على وجود كريم .. حتى وإن كانت تتمتع بجوانب من الأخلاق الإسلامية .

أما إذا اجتمع نوعا الأخلاق في أمة .. فإنها تقهر قوى الضعف والتخلف .. وتنتصر على مراكز الظلم والظلام .. وتحظى بتأييد الله عزَّ وجلَّ .

• وأن الفهم السقيم لنصوص الوحي « القرآن والسنة » والزعم بأنه الفهم المطلوب له عواقب وخيمة .

تدخل سعيد قائلاً : ويحضرني الآن أمران :

١- إن استقبال حوادث التاريخ بمواقف سابقة - كما فعل المستشرقون وتلامذة المذاهب الفكرية الغربية - مسلك غير علمي .. ونتائجه غير حميدة .

٢- وإن محاكمة الماضي بشروط وظروف الحاضر .. ظلم .. ينشأ عنه فهم سيئ للتاريخ .. ولا يستفيد منه الحاضر كما تنبغي الاستفادة .

واستأذن محمود في الكلام فقال : ولقد شد انتباهي في أحاديث شيخنا مسألتان :

الأولى : وتتمثل في « وجوب التثبت من أخبار الماضين ومن أنباء المعاصرين » فهذا شرط السلامة في الفهم والنجاة من الإثم .

الثانية : وتتعلق بـــ « خطورة منهج دراسة حوادث البشر » فقـــد يكـــون المنـــهج جزئيـــاً في الدراسة .. ولكنه مع ذلك يعمم نتائجه على ساحات الإنسان جميعها !! . وقـــد يكـــون ذا طـــابع شمولي .. ولكنه يقع في أسر المذهب .. وتُرى من خلاله جوانب الصواب والخطأ .

ومن هنا فإن « النسبية » في استنباطات المؤرخين هي الغالبة .

قال خالد : وعندي أيضاً ملاحظتان :

١- إن أخطر شيء في مجال التاريـــخ هو « تفســـير الواقعة التاريخية » .. ففي تفـــسيرات البشر التي بين أيدينا .. يبرز جانب استمداد التصورات الاعتقادية من تصرفات البشر .. أمـــا في تفسير الإسلام فإن المسألة محصورة في « الصواب والخطأ » .

٢- وإن التعامل مع « المصطلحات » فنٌّ .. ويجب أن تُراعى مدلولاتها داخل النفس بفعـــل الزمان والمكان .

أبدى الشيخ محمد سروره العظيم بما سمعه من محمود وسعيد وخالد ، وقال لهم : وقبل أن أودعكم أقول وكلي أمل :

لا تنسوا يا أبنائي .. أن حركة تجديدية قد بدأت في حقل التاريخ .. وقد انـــصبت جهـــود المجددين على « التنظـــير » للعملية التاريخية .. وفي الرد على تزوير تاريخنا . وأن جهـــوداً طيبـــة مباركة قد سارت على الدرب الصحيح ، وأن الوصول إلى مرحلة نضج مقبول يتطلـــب تـــراكم الجهود .. وحين يصل التراكم .. كماً ونوعاً .. درجة تبهر الألباب .. ســـيلمس النتائج كثير مـــن الناس .. الذين يحجب عنهم التضليل والجهل وضعف الإمكانات كثيراً من الأعمال الـــتي تـــؤثر بصمت وبإصرار كبير ..

فثقوا بالمستقبل العزيز الكريم .. وبشروا به في العالمين .

ملاحظات :